المغني في التفسير

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحرّرُ الجَامِعُ لِتفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

مُقْتَبَسَةً مِنْ مُوسُوعَةِ التَّفْسِيرِ المَأْثُورِ

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْنُ عَبْدِهِ

د/ آلَاء رِضَا

غَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا وَلِوَالِدَيْهِمَا وَلِمَشَايِخِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

سورةُ الرَّعدِ، سورةُ إبراهيمَ

(المجلَّدُ الثاني عشَر)

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

نسخة إلكترونية

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الرَّعدِ

سُورةُ الرَّعدِ

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الرَّعد).[1]

---

(1) وردت عدةُ آثارٍ عن السلفِ بتسميةِ هذه السورةِ سورةَ الرعدِ.

يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (4/599).

وقال ابنُ عاشورٍ: (سورةُ الرعدِ، هكذا سُمِّيتْ مِن عهدِ السلفِ، وذلك يدلُّ على أنَّها مسماةٌ بذلك مِن عهدِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ إذ لم يختلفوا في اسمِها).

((تفسير ابن عاشور)) (13/75).

ووجهُ تسميتِها بسورةِ الرعدِ: ذكرُ لَفظِ الرَّعدِ فيها في قَولِه تعالى: وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ [الرعد: 13].

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/262)، ((تفسير ابن عاشور)) (13/75).

سورةُ الرَّعدِ مِن السُّوَرِ المُختَلَفِ فيها؛ فقيل: إنَّها مدنيَّةٌ،[2] وحُكِي الإجماعُ على ذلك.[3] وقيل: إنَّها مكِّيَّةٌ.[4]

من أهمِّ الموضوعاتِ التي تناولَتْها هذه السُّورةُ:

1- الإشارةُ إلى القُرآنِ الكريمِ وكَونه حَقًّا مِن عندِ اللهِ تعالى.

2- سوقُ عددٍ مِن الأدلةِ التي تدُلُّ على قُدرةِ اللهِ تعالى الباهرةِ ووحدانيتِه.

3- حكايةُ جانبٍ مِن أقوالِ المشركينَ المتعلقةِ بالبعثِ معَ الردِّ عليهم.

---

(2) رواه عطاءٌ الخراسانيُّ عن ابنِ عباسٍ، وبه قال جابرُ بنُ زيدٍ.
ورُوِي عن ابنِ عباسٍ أنَّها مدنيَّةٌ، إلَّا آيتين نزلتا بمكَّةَ، وهما قولُه تعالى: وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ إلى آخرِها.
وقيل: مدنيةٌ إلَّا قولَه تعالى: وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ فمكِّيَّةٌ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (405/13)، ((تفسير الماوردي)) (91/3)، ((الوسيط)) للواحدي (3/3).
وقال بعضهم: المدنيُّ منها قوله تعالى: هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ إلى قوله تعالى: لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ.
يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (479/2).
قال ابنُ عطيةَ: (والظاهرُ- عندي- أنَّ المدنيَّ فيها كثيرٌ).
((تفسير ابن عطية)) (290/3).
(3) قال الرازي: (قال الأصمُّ: هي مدنيَّةٌ بالإجماعِ سوى قولِه تعالى: وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ).
((تفسير الرازي)) (524/18).
(4) رواه عليُّ بنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عباسٍ، وبه قال الحسنُ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وعطاءٌ، وقتادةُ.
وروَى أبو صالح عن ابنِ عباسٍ أنَّها مكِّيَّةٌ، إلَّا آيتين منها؛ قوله تعالى: وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ إلى آخرِ الآيةِ، وقوله: وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا.
يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (296/3)، ((تفسير ابن الجوزي)) (479/2)، ((تفسير ابن كثير)) (428/4)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (262/1)، ((تفسير الشربيني)) (143/2).

4- بيانُ كمالِ عِلمِ الله سبحانه وإحاطتِه بكلِّ شَيءٍ، وعظيمِ سلطانِه، وحكمتِه فيما يَقْضيه ويقدِّرُه.

5- ضَربُ مثلينِ للحَقِّ والباطلِ، وعقدُ مقارنةٍ بينَ مصيرِ أتباعِ الحقِّ، ومصيرِ أتباعِ الباطلِ، مع بيانِ أوصافِهما.

6- حكايةُ بعضِ مقترحاتِ الكفَّارِ ومطالبِهم المتعنتةِ معَ الردِّ عليهم.

7- بيانُ حسنِ عاقبةِ المتَّقينَ، وسوءِ عاقبةِ المكذِّبينَ.

8- تسليةُ الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا أصابَه.

سورةُ الرَّعدِ

الآيات (1–4)

المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ
(1) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2)
وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ
يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ
وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا
عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4)

غريب الكلمات:

رَوَاسِيَ: أي: جبالًا ثوابِتَ، وأصلُ (رسو): يدلُّ على ثباتٍ.

زَوْجَيْنِ: أي: صِنفَينِ ونوعَينِ، وأصلُ (زوج): يدل على مُقارنةِ شَيءٍ لشَيءٍ.

صِنْوَانٌ: أي: مُجتمِعٌ، والصِّنوانُ مِن النَّخلِ: النَّخلتانِ والنَّخلاتُ يجمَعُهنَّ أصلٌ واحِدٌ، وتتشعَّبُ منه رؤوسٌ فتصيرُ نخيلًا، وأصلُ (صنو): يدلُّ على تقارُبٍ بين شَيئَينِ.

تفسير الآيات:

المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ

.(1)

المر.

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحروفِ المقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ البَقَرةِ.[5]

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ.

أي: هذه آياتُ القُرآنِ، الرَّفيعةُ الشَّأنِ العاليةُ المراتِبِ.[6]

---

(5) ذكر ابنُ عطية (٥/ ١٦٨ – ١٦٩) أنّ مَن قال بأنّ حروف أوائل السور هي مثال لحروف المعجم، قال: الإشارة هنا بـ ﴿تلك﴾ هي إلى حروف المعجم، ثم وجَّه قولهم بقوله: «ويَصِحُّ على هذا أن يكون ﴿الكِتابِ﴾ يراد به: القرآن، ويصح أن يراد به: التوراة والإنجيل.

و﴿المر﴾ على هذا ابتداءٌ، و﴿تِلْكَ﴾ ابتداء ثان، و﴿آياتُ﴾ خبر الثاني، والجملة خبر الأول ...

قوله تعالى: ﴿والَّذِي أُنْزِلَ إلَيْكَ مِن رَبِّكَ الحَقُّ﴾: ﴿الَّذِي﴾ رفع بالابتداء، و﴿الحَقُّ﴾ خبره».

ثم وجَّه قول ابن عباس بقوله: «وعلى قول ابن عباس في ﴿المر﴾ تكون ﴿تِلْكَ﴾ ابتداء، و﴿آياتُ﴾ بدلًا منه، ويصح في ﴿الكِتابِ﴾ التأويلان اللذان تقدَّما ...

وعلى قول ابن عباس يكون ﴿الذي﴾ عطفًا على ﴿تلكَ﴾، و﴿الحقُّ﴾ خبر ﴿تلك﴾».

(6) قال الخازن: (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الإشارةُ بـ تِلْكَ إلى آياتِ السورةِ...، والمرادُ بـ الْكِتَابِ السورةُ أي: آياتُ السورةِ الكاملةِ العجيبةِ في بابِها، ثم قال تعالى: وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ يعني مِن القرآنِ كلِّه هو الحقُّ الذي لا مزيدَ عليه.

وقيل: المرادُ بالإشارةِ في قولِه: تِلْكَ الأخبارُ والقصصُ أي: الأخبارُ والقصصُ التي قصصتُها عليك يا محمدُ هي آياتُ التوراةِ والإنجيلِ والكتبِ الإلهيةِ القديمةِ المنزلة، وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ يعني: وهذا القرآنُ الذي أُنزل إليك يا محمدُ من ربِّك الحَقُّ أي: هو الحقُّ فاعتصِمْ به.

وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ.

أي: وهذا القرآنُ الذي أُنزِل إليك– يا مُحمَّدُ– مِن ربِّك لا مِن غَيرِه، هو الحقُّ؛ فاعتَصِمْ به واعمَلْ بما فيه، ووجَب لثُبوتِ حَقِّيَّتِه أن يؤمِنَ به جميعُ النَّاسِ.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يُؤمنونَ بأنَّ القُرآنَ هو الحقُّ الذي جاء مِن عندِ اللهِ، مع وضوحِ ذلك وثُبوتِه؛ جهلًا منهم وإعراضًا، أو عِنادًا وظُلمًا.

كما قال تعالى: وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ [يوسف: 103].

اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2).

وقال ابنُ عباسٍ وقتادةُ: أراد بآياتِ الكتابِ القرآنُ، والمعنى: هذه آياتُ الكتابِ الذي هو القرآنُ، ثم قال: وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ، يعني: وهذا القرآنُ الذي أُنزل إليك مِن ربِّك هو الحقُّ لا شكَّ فيه ولا تناقضَ).
((تفسير الخازن)) (3/3).

اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا.

أي: اللهُ هو الذي رفعَ بقُدرتِه العظيمةِ السَّمواتِ السَّبعَ بلا أعمدةٍ، كما ترَونَها.(7)

كما قال تعالى: خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا [لقمان: 10].

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ.

أي: ثمَّ علا اللهُ على عَرشِه العظيمِ عُلوًّا يليقُ بجلالِه وكَمالِه.(8)

---

(7) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (13/408، 411)، ((تفسير ابن كثير)) (4/428، 429)، ((تفسير السعدي)) (ص: 412)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (2/221).

والقول بأنَّ السمواتِ مرفوعةٌ بلا أعمدةٍ هو قولُ أكثرِ المفسِّرين.

يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (3/75).

قال الرسعني: (وهذا قولُ ابنِ عباسٍ في روايةِ أبي صالحٍ، وبه قال الحسنُ وقتادةُ وجمهورُ العلماءِ، وهو الصحيحُ؛ لأنَّها لو احتاجتْ إلى عمدٍ لافتقرَ العمدُ إلى دعامةٍ أيضًا، وتسلسلَ إلى ما لا نهايةَ له).

((تفسير الرسعني)) (3/435).

وقال ابنُ كثيرٍ: (وهذا هو اللَّائقُ بالسِّياقِ، والظَّاهرُ مِنْ قولِه تعالَى: وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ [الحج: 65]، فعلى هذا يكونُ قولُه: تَرَوْنَهَا تأكيدًا لنفيِ ذلك، أي: هي مرفوعةٌ بغيرِ عمدٍ كما تَرَوْنَها، هذا هو الأكملُ في القدرة).

((تفسير ابن كثير)) (4/429).

وقيل: لها عَمَدٌ ولكن لا تُرَى، وهو مرويٌّ عن ابنِ عَبَّاسٍ أيضًا، ومجاهدٍ، والحسنِ، وقتادةَ.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (4/429).

(8) نقل ابنُ عطية (ت/ ١٧١) عن مجاهد أنّه قال في معنى: ﴿اسْتَوى عَلَى العَرْشِ﴾ أي: علا على العرش، ثم انتقده قائلًا: «والنظر الصحيح يرفع هذه العبارة».

وتعقيب ابن عطية باطل، والحق إثبات الاستواء لله تعالى على ما يليق بجلاله وكماله وعظمته، وهو إجماع السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم.

ينظر: الشريعة ٣/ ١٠٨١ – ١١٠٧، الإبانة الكبرى ٣/ ١٣٦ – ١٦٨، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢/ ٤٢٩ – ٤٤٧.

وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى.

أي: وذلَّلَ الشَّمسَ والقمرَ لمصالحِ خَلْقِه، كلٌّ منهما يجري في السَّماءِ إلى وقتٍ معلومٍ، وهو انتهاءُ الدُّنيا ووقوعُ يومِ القيامةِ.

يُدَبِّرُ الأَمْرَ.

أي: يُصرِّفُ أمورَ مخلوقاتِه كما يريدُ.

يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ.

أي: يبيِّنُ ويوضِّحُ لكم آياتِه الدالةَ على وحدانيتِه وقُدرتِه على البعثِ وغيرِه؛ كي تُوقِنوا بالبعثِ بعد الموتِ، وتُوقِنوا بوَعدِه ووعيدِه.

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3).

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ.

أي: واللهُ هو الذي بسطَ لكم الأرضَ طولًا وعَرضًا، فخلقَها متَّسِعةَ الأرجاءِ؛ لتنتَفِعوا بها.

كما قال تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا [البقرة: 22].

وقال سُبحانه: أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا [النبأ: 6].

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا.

أي: وجعل فيها جِبالًا ثابتةً، وأنهارًا جاريةً.

كما قال تعالى: وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا [المرسلات: 27].

وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ.

أي: ومن جميعِ الثَّمَراتِ جعل اللهُ في الأرضِ صِنفَينِ اثنينِ.(9)

كما قال الله سبحانه: خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ [لقمان: 10].

وقال عزَّ وجلَّ: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى [طه: 53].

وقال تعالى: وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ [ق: 7].

---

(9) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (414/13)، ((تفسير الخازن)) (5/3)، ((تفسير السعدي)) (ص: 412).
قال الرازي: (المرادُ بـ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ: صِنفينِ اثنينِ، والاختلافُ إمَّا مِن حيث الطَّعمُ، كالحُلوِ والحامضِ، أو الطَّبيعةُ، كالحارِّ والبارِدِ، أو اللونُ، كالأبيضِ والأسودِ).
((تفسير الرازي)) (7/19).
ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (481/2)، ((تفسير الشوكاني)) (78/3).

يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ.

أي: يغطِّي اللهُ باللَّيلِ النَّهارَ، ويغطِّي بالنَّهارِ اللَّيلَ، فيجعلُ كلًّا منهما ساترًا للآخرِ.(10)

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.

أي: إنَّ فيما ذكرتُه لكم من عجائبِ مَخلوقاتي لدَلالاتٍ وعَلاماتٍ لِقَومٍ يتفكَّرونَ فيها، فيستدِلُّونَ بها على وحدانيَّةِ الله تعالى وكمالِ صِفاتِه، ومن ذلك حِكمتُه وقُدرتُه على وقوعِ البعثِ، وأنَّ العبادةَ لا تصلحُ لِغَيرِه سُبحانَه.

كما قال تعالى: إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ [الجاثية: 3 – 6].

---

(10) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (415/13)، ((تفسير ابن كثير)) (431/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 412).

قال الشنقيطي: (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ...

معناه: يجعلُ الليلَ مُغْشِيًا للنهارِ، أي: مُغَطِّيًا ضوءَ النهارِ بظلامِه، يذهبُ بضوءِ النهارِ ويغطي ضوءَه بظلامِ الليلِ، وهذا من غرائبِ صنعِه وعجائبِ آياتِه، وفي الآيةِ محذوفٌ دَلَّ المقامُ عليه، أي: وَيُغْشِي النهارَ الليلَ أيضًا، فيأتي ضوءُ النهارِ، ويغشى ظلامَ الليلِ فيُذْهِبُه، ويحلُّ محلَّه).

((العذب النمير)) (381/3).

ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (342/2).

وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4).

وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ.

أي: ومِن الآياتِ على كمالِ قُدرتِه العجيبةِ وبديعِ صُنعِه وأنَّه سُبحانَه الفاعِلُ المُختارُ وَحدَه: أنْ جعَلَ في الأرضِ بقاعًا مُختلفةً في ألوانِها وأحجامِها، وأنواعِها وطبائعِ مَنابتِها؛ فهذه- مثلًا- طَيِّبةٌ عَذبةٌ تُنبِتُ ما ينفَعُ النَّاسَ، وهذه سَبِخةٌ مالِحةٌ لا تُنبِتُ شيئًا، مع كونِ تلك البقاعِ مُتجاوِرةً مُتقارِبةً!

وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ.

أي: وفي الأرضِ بَساتينُ مِن أعنابٍ مُتنَوِّعة، وفيها زروعٌ مُختَلِفةٌ.

وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ.

أي: وفي الأرضِ نَخيلٌ مُختلِفةٌ؛ فهناك نَخلاتٌ يجمَعُهنَّ أصلٌ واحِدٌ في مَنبتٍ واحدٍ، وهناك نَخلاتٌ مُتفرِّقاتٌ، كلُّ نخلةٍ منها نابتةٌ مِن أصلٍ مُستقِلّ.[11]

---

(11) نقل ابنُ عطية (٥/ ١٧٤) عن البراء بن عازب – رضي الله عنهما – قوله: «الصِّنوان: المجتمع. وغير صنوان: المتفرق فردًا فردًا».

ثم علَّق عليه بقوله: «ومنه قول النبي – ﷺ –: «العمُّ صِنْوُ الأب»».

يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ.

أي: جميعُ ما ذكَرْناه من الجنَّاتِ والنَّخيلِ والزُّروعِ، يُسقى بماءٍ واحدٍ عذبٍ غيرِ مالحٍ.

وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ.

أي: ونفضِّلُ بعضَ الأعنابِ والزُّروعِ والنَّخيلِ على بعضٍ في الثَّمرِ؛ طَعمًا وشَكلًا، ولونًا ورائحةً، وأوراقًا وأزهارًا ونفعًا، مع كونِها تُسقَى بماءٍ واحدٍ!!

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

أي: إنَّ في اختلافِ قطعِ الأرضِ المتجاوراتِ، واختلافِ ثمارِ الجنَّاتِ لعلاماتٍ واضحاتٍ ودلالاتٍ لمن كان له قلبٌ يفهمُ عن اللهِ ما أخبرَ به، فمِن ذلك دلالاتُها على أنَّ الله بعلمِه وقدرتِه فاوَت بينَ الأشياءِ وخلَقها على ما يشاءُ، وكما أنَّه قادرٌ على ما يريدُ مِن ابتداءِ الخلقِ ثم تنويعِه بعد إبداعِه، فهو قادرٌ أيضًا على إعادتِه بطريقِ الأَوْلَى، وأيضًا فالذي خالَف بينَ تلك الأشياءِ، هو الذي خالَف بينَ خلقِه فيما قسَم لهم مِن هدايةٍ وضلالٍ وتوفيقٍ وخذلانٍ.

سورةُ الرَّعدِ

الآيات (5–7)

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (5) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (6) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7)

غريب الكلمات:

الْأَغْلَالُ: جمعُ غُلٍّ، والغُلُّ: مختصٌّ بما يُقيَّدُ به فيجعلُ الأعضاءَ وسطَه، أو: هو طوقٌ تشدُّ به اليدُ إلى العنقِ، أو حَلْقَةٌ مِنْ حديدٍ أو غيرِه تُحيطُ بالعنقِ تُناطُ بها سلسلةٌ مِنْ حديدٍ، وأصلُ (غلل): تدرُّعُ الشيءِ وتوسُّطُه.

خَلَتْ: أي: مَضَت وذَهبَت، وأصلُ (خلو): يدُلُّ على تعرِّي الشَّيءِ مِن الشَّيءِ.

الْمَثُلَاتُ: أي: العُقوباتُ النازلةُ على أمثالِهم من المكَذِّبينَ، وأصلُ (مثل): يدلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ.

تفسير الآيات:

وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ (5).

وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ.

أي: وإنْ تَعجَبْ- يا مُحمَّدُ- مِن عبادةِ المُشرِكِينَ آلهةً لا تضُرُّ ولا تنفَعُ، بعدَما رأَوا مِن آثارِ قُدرةِ اللهِ العظيمةِ ما رأَوْا؛ مِن خَلْقِه الأشياءَ التي تقدَّمَ ذِكرُها؛ فالعجَبُ مِن إنكارِهم البعثَ بقَولِهم: أئِذا صِرْنا تُرابًا بعد مَوتِنا، أئِنَّا لمبعوثونَ خَلقًا جديدًا كما كنَّا في الدُّنيا؟!

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ.

أي: أولئك- البَعيدونَ عن كُلِّ خيرٍ ممَّن يُنكِرونَ البَعثَ بعد الموتِ- قد وقَعوا بذلك في الكُفرِ باللهِ تعالى، حيثُ أنكَروا قُدرةَ الرَّبِّ الذي خلَقَهم ويَملِكُهم، ويدَبِّرُ أمورَهم، وكذَّبوا رسلَه.

وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ.

أي: وهم الذين في أعناقِهم أطواقٌ مِن حديدٍ، يومَ القيامةِ.(12)

---

(12) ذكر ابنُ عطية (٥/ ١٧٧) في معنى: ﴿وأُولَئكَ الأَغْلالُ فِي أعْناقِهِمْ﴾ احتمالين:

الأول: «الحقيقة، وأنه أخبر عن كون الأغلال في أعناقهم في الآخرة، فهي كقوله تعالى: ﴿إِذِ الأَغْلالُ في أعْناقِهِمْ والسَّـلاسِـلُ﴾ [غافر: ٧١]».

كما قال تعالى: الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ [غافر: 70 – 72].

وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

أي: وأولئك سُكَّانُ النَّارِ، هم ماكِثونَ فيها، لا يَخرُجونَ منها أبدًا.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (6).

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ.

أي: ويطلُبُ منك كفَّارُ قَومِك – يا محمَّدُ – استخفافًا واستهزاءً؛ أن تُعَجِّلَ لهم العذابَ قبلَ أن يَطلُبوا العافيةَ والإمهالَ، وذلك لشدَّةِ كُفرِهم وتكذيبِهم وعِنادِهم.

كما قال تعالى: وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [الأنفال: 32].

والثاني: «أن يكون مجازًا، وأنّه أخبر عن كونهم مغللين عن الإيمان، فهي إذًا تجري مجرى الطبع والختم على القلوب، وهي كقوله تعالى: ﴿إِنّا جَعَلْنا فِي أعْناقِهِمْ أغْلالًا فَهِيَ إلى الأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ [يس: ٨]».

ثم نقل عن بعض الناس أن: «الأَغْلالُ هنا عبارة عن الأعمال، أي: أعمالهم الفاسدة في أعناقهم كالأغلال».

ثم علَّق عليه بقوله: «وتحرير هذا هو في التأويل الثاني الذي ذكرناه».

وقال سُبحانه: وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [الحجر: 6–7].

وقال عزَّ وجلَّ: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ [العنكبوت: 53–54].

وقال جلَّ ثناؤه: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ [هود: 7، 8].

وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ.

أي: يَستعجِلونك بالعذابِ والحالُ أنَّهم يعلمونَ ما حلَّ بالأُمَمِ المكذِّبةِ مِن قَبلِهم مِن العُقوباتِ، ولم يتَّعظوا!

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ.

أي: وإنَّ ربَّك– يا محمَّدُ– ذُو عَفْوٍ وتجاوزٍ وسَترٍ للنَّاسِ معَ أنَّهم يَظْلِمونَ ويُخْطِئونَ باللَّيلِ والنَّهارِ، وذلك إذا تابوا ورجَعوا إلى الله.(13)

وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ.

أي: وإنَّ ربَّك– يا محمَّدُ– لَشديدُ العِقابِ لمن أصرَّ على ظُلمِه، فيُعاقِبُه على ذلك في الدُّنيا أو في الآخرةِ، أو في كِلا الدَّارَينِ.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7).

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ.

أي: ويقولُ الكافِرونَ مِن قَومِك– يا مُحمَّدُ– عنادًا وكفرًا، واعتذارًا عن الإيمانِ بك: هلَّا أُنزِلَ على محمَّدٍ مُعجِزةٌ مِن رَبِّه تَدُلُّ على نبُوَّتِه!

---

(13) نقل ابنُ عطية (٥/ ١٧٨) عن ابن جرير في قوله تعالى: ﴿وإنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ﴾ أنه قال: «معناه: في الآخرة».

ونقل عن قومٍ: أن «المعنى: إذا تابوا، وشديد العقاب إذا كفروا».

ثم علَّق بقوله: «والظاهر من معنى المغفرة هنا إنما هو: سَـــتْرُهُ في الدنيا وإمهاله للكفرة، ألا ترى التنكير في لفظ ﴿مَغْفِرَةٍ﴾، وأنها منَكَّرة مُقَلَّلة وليس فيها مبالغة، كما في قوله تعالى: ﴿وإنِّي لَغَفّارٌ لِمَن تابَ وآمَنَ﴾ [طه: ٨٢]، ونمط الآية يُعْطِي هذا، ألا ترى حكمه عليهم بالنار؟ ثم قال: ﴿ويَسْتَعْجِلُونَكَ﴾، فلما ظهر سوءُ فعلهم وجب في نفس السامع تعذيبهم، فأخبر بسيرته في الأمم وأنه يمهل مع ظلم الكفر، ولم يَرِد في الشرع أنّ الله تعالى يغفر ظُلْمَ العباد».

كما قال تعالى: وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا [الإسراء: 90 – 93].

وقال سُبحانه: لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا [الفرقان: 7–8].

إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ.

أي: إنَّما عليك– يا محمَّدُ– أن تُحذِّرَ قومَك مِن عِقابِ اللهِ إن أصرُّوا على كُفرِهم، وليس عليك هدايتُهم، ولا إنزالُ الآياتِ التي يقترِحونَها.

وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ.

أي: ولكُلِّ أمَّةٍ رَسولٌ يدعوهم إلى توحيدِ اللهِ، ويُعَلِّمُهم الخيرَ، فيَهتَدونَ به.[14]

---

(14) اختُلِف في المعنيِّ بـ «الهاد» في هذه الآية على أقوال: الأول: هو رسول الله – ﷺ –.

الثاني: هو الله – عز وجل –.

الثالث: معناه: نبيٌّ.

الرابع: هو علي بن أبي طالب.

الخامس: معناه: لكل قومٍ قائد.

السادس: معناه: لكل قوم داعٍ.

ووجَّه ابنُ عطية (٥/ ١٧٩) القول الأول بقوله: «فيكون هذا المعنى يجري مع قوله عليه الصلاة والسلام: «بُعِثْتُ إلى الأحمر والأسود».

و﴿هادٍ﴾ -على هذا في هذه الآية-: داعٍ إلى طريق الهدى».

ووجَّه القول الثاني بقوله: «و﴿هادٍ﴾ على هذا معناه: مخترع للرشاد».

ثم علَّق عليه بقوله: «والألفاظ تطلق بهذا المعنى، ويعرف أنّ الله تعالى هو الهادي من غير هذا الموضع».

وعلَّق على القول الثالث بقوله: «وهذا يشبه غرض الآية».

ووجَّه القول الرابع بقوله: «والذي يشبه -إن صحَّ هذا- أنّ النبي - ﷺ - إنّما جعل عليًّا؟ مثالًا مِن علماء الأمة وهداها إلى الدين، كأنه قال: يا عليّ، أنت وصنفك.

فيدخل في هذا أبو بكر، وعمر، وعثمان، وسائر علماء الصحابة -عليهم رضوان الله أجمعين-، ثم كذلك من كل عصر، فيكون المعنى على هذا: إنما أنت -يا محمد- منذر، ولكلّ قوم في القديم والحديث دعاة وهداة إلى الخير».

وقد دمج ابنُ تيمية القولين الأول والثالث، وساق الآثار الواردة في كل منهما مساقًا واحدًا، بخلاف ما فعله ابنُ جرير فقد مايز بينهما.

وبيَّن ابنُ جرير (١٣/ ٤٤٣) أن معنى: ﴿ولِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾ أي: «ولكلِّ قومٍ إمامٌ يَأتمُّون به، وهادٍ يتقدمهم، فيهديهم إما إلى خيرٍ، وإما إلى شرٍّ».

ثم رجَّح جواز تلك الأقوال دون القطع بقولٍ منها لدلالة اللغة، وعدم دليل التخصيص، فقال: «وقد بيَّنْتُ معنى الهداية، وأنه الإمام المتَّبعُ الذي يَقْدُمُ القوم، فإذ كان ذلك كذلك فجائزٌ أن يكون ذلك هو الله الذي يهدي خلْقَه، ويتَّبعُ خلْقُه هداه، ويأتمُّون بأمره ونهيه، وجائزٌ أن يكون نبيَّ الله الذي تَأْتَمُّ به أمّته، وجائزٌ أن يكون إمامًا مِن الأئمة يؤتمُّ به، ويَتَّبِعُ منهاجه وطريقتَه أصحابُه، وجائزٌ أن يكون داعيًا من الدعاة إلى خيرٍ أو شرٍّ.

وإذ كان ذلك كذلك فلا قول أولى في ذلك بالصواب مِن أن يقال كما قال -جلَّ ثناؤه-: إن محمدًا هو المنذر من أُرسِل إليه بالإنذار، وإن لكلِّ قومٍ هاديًا يهديهم، فيَتَّبعونه ويأتمُّون به».

ورجَّح ابنُ عطية (٥/ ١٨٠) القول الأول، وهو قول ابن عباس من طريق عكرمة، وأبي الضحى من طريق منصور، وعكرمة من طريق السدي، وقتادة، فقال: «والقول الأول أرجح ما تؤول في هذه الآية».

ولم يذكر مستندًا.

ورجَّح ابنُ تيمية (٤/ ٨٢، ٨٣) القول الثالث مستندًا إلى دلالة القرآن، فقال: «والصحيح: أنّ معناها: إنما أنت نذير كما أرسل من قبلك نذير، ولكل أمة نذير يهديهم، أي: يدعوهم، كما في قوله: ﴿وإن مِّنْ أُمَّةٍ إلا خَلا فِيها نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وهذا قول جماعة من المفسرين، مثل: قتادة، وعكرمة، وأبي الضحى، وعبد الرحمن بن زيد ...».

وانتقد مستندًا إلى دلالة اللغة القولَ أنّ النبي - ﷺ - نذيرٌ لكلِّ قوم، وكذا القول أنّه الله، وكذا القول أنه علي؟، فقال: «قيل معناه: ﴿ولكل قوم هاد﴾ وهو الله تعالى، وهو قول ضعيف.

وكذلك قول مَن قال: أنت نذير وهاد لكل قوم، قول ضعيف ...

كما قال تعالى: وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ [يونس: 47].

وقال سُبحانه: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ [النحل: 36].

وقال عزَّ وجلَّ: وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ [فاطر: 24].

وقال تبارك وتعالى: وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [الشورى: 52].

وكذا تفسيره بأنه عليّ قول باطل؛ لأنه قال: ﴿وِلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾، وهذا يقتضي أن يكون هادي هؤلاء غير هادي هؤلاء، فيتعدد الهداة، فكيف يُجعَل عليٌّ هاديًا لكلِّ قوم مِن الأولين والآخرين؟!».

وذكر «أن قوله: ﴿وِلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾ نكرة في سياق الإثبات، وهذا لا يدل على معيَّن، فدعوى دلالة القرآن على عليٍّ باطل».

ثم بيَّن أن «كل» في قوله: ﴿ولكلِّ قومٍ﴾ «صيغة عموم، ولو أُريد أنّ هاديًا واحدًا للجميع لقيل: لجميع الناس هاد، لا يقال: ﴿ولكل قوم﴾، فإنّ هؤلاء القوم غير هؤلاء القوم، وهو لم يقل: لجميع القوم، ولا يقال ذلك، بل أضاف كلًّا إلى نكرة، لم يضفه إلى معرفة.

كما في قولك: كل الناس يعلم أنّ هنا قومًا وقومًا متعددين، وأن كلَّ قوم لهم هادٍ ليس هو هادي الآخرين.

وهذا يبطل قول من يقول: إنّ الهادي هو الله تعالى، ودلالته على بطلان قول مَن يقول: هو علي.

أظهر».

سورةُ الرَّعدِ

الآيات (8-11)

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8) عَالِمُ
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ
مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (10) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ
أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ
وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11)

غريب الكلمات:

تَغِيضُ: أي: تنقُصُ، يُقالُ: غاض الماءُ، فهو يَغيضُ؛ إذا نقَص، وأصلُ (غيض): يدُلُّ على نُقصانٍ في شَيءٍ.

وَسَارِبٌ: أي: بارِزٌ ظاهِرٌ في سَرْبِه، أي: طريقِه، وأصلُ (سرب): يدُلُّ على الاتِّساعِ والذَّهابِ في الأرضِ.

مُعَقِّبَاتٌ: أي: مَلائِكةٌ يَخْلُفُ بعضُها بعضًا في اللَّيلِ والنَّهارِ، وأصلُ (عقب): يدُلُّ على تأخيرِ شَيءٍ، وإتيانِه بعدَ غَيرِه.

وَالٍ: أي ملجأٍ وناصرٍ، وأصْلُ (ولي): يدلُّ على القُرْبِ، سواء مِن حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه.

تفسير الآيات:

اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (8).

اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى.

أي: اللهُ يعلَمُ ما تحمِلُه كلُّ أنثى مِن بني آدمَ وغيرِهم، يعلمُ ما تحملُه على أيِّ حالٍ هو؛ مِن ذُكورةٍ وأنوثةٍ، وحُسْنٍ وقُبحٍ، وطُولٍ وقِصَرٍ، وسَعادةٍ وشَقاوةٍ، إلى غيرِ ذلك من الأحوالِ.

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ [آل عمران: 5- 6].

وقال سُبحانه: وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ [فاطر: 11].

وقال عزَّ وجلَّ: هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ [النجم: 32].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حدَّثَنا رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهو الصَّادِقُ المصدوقُ: ((إنَّ أحدَكم يُجمَعُ في بَطنِ أمِّه أربعينَ يومًا، ثمَّ يكونُ علَقةً مثلَ ذلك، ثمَّ يكونُ مُضغةً مثلَ ذلك، ثمَّ يَبعَثُ اللهُ إليه مَلَكًا بأربعِ كَلِماتٍ، فيكتُبُ عَمَلَه، وأجَلَه، ورِزْقَه، وشَقيٌّ أو سعيدٌ، ثم يُنفَخُ فيه الرُّوحُ)).[15]

---

(15) رواه البخاري (3332)، ومسلم (2643).

وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ.

أي: وهو تعالى عالمٌ بما تَنقُصه الأرحامُ وما تزيدُه؛ سواءٌ في بدنِ الجنينِ، أو مدةِ الحملِ، وغيرِ ذلك مما يعرِضُ أثناءَ الحملِ مِن الزيادةِ والنقصانِ.(16)

---

(16) وممن ذهَب من المفسِّرين إلى عمومِ الزيادةِ والنقصانِ في الحملِ: ابنُ القيمِ، والشنقيطي.

قال ابنُ القيِّم: (التَّحقيقُ في معنى الآيةِ أنَّه يَعلَمُ مُدَّةَ الحَملِ، وما يَعرِضُ فيها مِنَ الزِّيادةِ والنُّقصانِ، فهو العالِمُ بذلك دونَكم... فهو سُبحانَه المُنفَرِدُ بعِلمِ ما في الرَّحِمِ، وعِلمِ وَقتِ إقامتِه فيه، وما يزيدُ مِن بَدَنِه وما يَنقُصُ، وما عدا هذا القَولَ فهو من توابِعِه ولوازِمِه، كالسِّقطِ والتَّامِّ، ورؤيةِ الدَّمِ وانقطاعِه، والمقصودُ ذِكرُ مُدَّةِ إقامةِ الحَملِ في البَطنِ وما يتَّصِلُ بها مِن زيادةٍ ونُقصانٍ).

((تحفة المودود بأحكام المولود)) (ص: 268).

وقال الشِّنقيطيُّ بعد أن ذكَر الأقوالَ في الآيةِ: (مَرجِعُ هذه الأقوالِ كُلِّها إلى شَيءٍ واحدٍ، وهو أنَّه تعالى عالِمٌ بما تَنقُصُه الأرحامُ وما تزيدُه؛ لأنَّ معنى تَغيضُ: تَنقُصُ، وتزدادُ، أي: تأخُذُه زائِدًا، فيَشمَلُ النَّقصُ المذكورُ: نَقصَ العَدَدِ، ونَقصَ العُضوِ من الجنينِ، ونَقصَ جِسمِه إذا حاضت عليه فتَقلَّص، ونَقصَ مُدَّةِ الحَملِ بأن تُسقِطَه قبلَ أمَدِ حَملِه المعتادِ، كما أنَّ الازديادَ يَشمَلُ: زيادةَ العُضوِ، وزيادةَ العَدَدِ، وزيادةَ جِسمِ الجنينِ إن لم تَحِضْ وهي حامِلٌ، وزيادةَ أمَدِ الحَملِ عن القَدرِ المُعتادِ، واللهُ جَلَّ وعلا يعلَمُ ذلك كُلَّه، والآيةُ تَشمَلُه كُلَّه).

((أضواء البيان)) (2/226).

وقيل المعنى: ويعلَمُ ما تنقُصُ الأرحامُ مِن حَملِها في الأشهرِ التِّسعةِ بظُهورِ دَمِ الحَيضِ، وما تزدادُ في حَملِها على الأشهُرِ التِّسعةِ.

وممن اختار ذلك: ابنُ جرير، ونسَبه ابنُ عطيةَ إلى جمهورِ المفسِّرين.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (13/444)، ((تفسير ابن عطية)) (3/298).

وممن قال به من السلفِ: ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جُبير، وعكرمةُ، وابنُ زيدٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (444-451).

وقال الواحدي: (قال أكثرُ المفسِّرين: يعلمُ الوقتَ الذي تنقصُه الأرحامُ مِن المدةِ التي هي تسعةُ أشهرٍ، وما تزدادُ على ذلك. قال الضحاكُ: الغيضُ: النقصانُ مِن الأجلِ، والزيادةُ: ما يزدادُ على الأجلِ، وذلك أنَّ النساءَ لا يلِدْنَ لأجلٍ واحدٍ).

((الوسيط)) (3/7).

نقل ابنُ عطية (٥/ ١٨٢) اختلافًا في أكثر الحمل قائلًا: «فقيل: تسعة أشهر».

وانتقده قائلًا: «وهذا ضعيف».

ثم قال: «وقالت عائشة وجماعة من العلماء: أكثره حولان.

وقالت فرقة: ثلاثة أعوام.

عن ابنِ عُمَرَ رضِيَ اللهُ عنهما أنَّ رسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((مفاتِحُ الغيبِ خَمسٌ لا يعلَمُها إلَّا اللهُ: لا يعلَمُ ما في غدٍ إلَّا اللهُ، ولا يعلَمُ ما تغيضُ الأرحامُ إلَّا اللهُ، ولا يعلَمُ متى يأتي المطَرُ أحدٌ إلَّا اللهُ، ولا تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ، ولا يعلَمُ متى تقومُ السَّاعةُ إلَّا اللهُ)).(17)

وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ.

أي: وكلُّ شَيءٍ عندَ الله بقَدْرٍ وحَدٍّ، لا يتجاوَزُه ولا يَقصُرُ عنه، كما لا يزدادُ حَملُ أنثى على ما قُدِّرَ له، ولا ينقُصُ عما حُدَّ له.

عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9).

عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ.

أي: اللهُ عالِمٌ بكُلِّ ما غاب عنكم، وكُلِّ ما تُشاهِدونَه بأبصارِكم، لا يخفَى عليه شيءٌ مِن ذلك كُلِّه.

الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ.

وفي المدونة: أربعة أعوام، وخمسة أعوام.

وقال ابن شهاب وغيره: سبعة أعوام.

وروي: أنّ ابن عجلان ولدت امرأته لسبعة أعوام.

وروي: أنّ الضحاك بن مزاحم بقي حولين، قال: فولدت وقد نبتت ثناياي.

وروي: أنّ عبد الملك بن مروان ولد لستة أشهر».

(17) رواه البخاري (4697).

أي: هو الكبيرُ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه، وهو أكبرُ مِن أيِّ شيءٍ، وكُلُّ شَيءٍ دُونَه، وهو المُستَعلي على جميعِ خَلْقِه، بذاتِه وقَدْرِه وقَهرِه.

سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (10).

سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ.

أي: يستوي في عِلمِ اللهِ- تعالى- وسَمعِه مَن أسرَّ مِنكم بقَولٍ، ومن جهَرَ به؛ مِن خيرٍ أو شَرٍّ، فالسِّرُّ والجهرُ عنده سواءٌ.

كما قال تعالى: وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [الملك: 13- 14].

وقال سُبحانه: وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى [طه: 7].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ [ق: 16].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((الحمدُ للهِ الذي وَسِعَ سَمعُه الأصواتَ؛ لقد جاءت المجادِلةُ إلى النبيِّ - ﷺ - وأنا في ناحيةِ البَيتِ، تَشكو زَوجَها، وما أسمَعُ ما تقولُ، فأنزلَ اللهُ: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا [المجادلة: 1])).(18)

(18) أورده البخاريُّ معلقًا بصيغةِ الجزمِ قبلَ حديثِ (7386)، وأخرجه موصولًا النسائي (3460)، وابن ماجه (188) واللفظ له، وأحمد (24195).

وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ.

أي: ويستوي في عِلمِ اللهِ وبَصَرِه مَن هو مُختَفٍ في ظُلمةِ اللَّيلِ، ومَن هو ظاهِرٌ يمشي في ضَوءِ النَّهارِ؛ فكِلا الحالَينِ عنده سَواءٌ.(19)

كما قال تعالى: وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [يونس: 61].

وقال سُبحانَه: أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [هود: 5].

صحَّحه ابنُ عساكر في ((معجم الشيوخ)) (163/1)، وقال ابنُ تيمية في ((تلبيس الجهمية)) (280/1): (إسنادُه ثابتٌ)، وصحَّحه ابنُ الملقن في ((البدر المنير)) (145/8)، وابنُ حجر في ((تغليق التعليق)) (339/5)، والألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (3640).

(19) نقل ابنُ عطية (٥/ ١٨٤) عن «قطرب –فيما حكى الزجاج–: ﴿مُسْتَخْفٍ﴾ معناه: ظاهر، من قولهم: خفَيْتُ الشيء: إذا أظهرته، ...

﴿وسارِبٌ﴾ معناه: متوارٍ في سرب».

ثم انتقده مستندًا إلى دلالة السياق قائلًا: «وهذا القول وإن كان متعلِّقًا باللغة فضعيف؛ لأن اقتران الليل بالمستخفي والنهار بالسارب يردُّ على هذا القول».

وذكر ابنُ عطية (٥/ ١٨٣) أنّ ابن عباس –من طريق العوفي– ومجاهد ذهبا «إلى معنى مقتضاه: أنّ المستخفي بالليل والسارب بالنهار هو رجل واحد، مريب بالليل، ويظهر بالنهار البراءة في التصرف مع الناس».

ثم علَّق عليه بقوله: «فهذا قِسْمٌ واحد جعل الليلَ نهار راحته».

ثم وجَّهه بقوله: «والمعنى: هذا والذي أمره كله واحد بريء من الريب سواء في اطلاع الله تعالى على الكل، ويؤيد هذا التأويل عطف السارب دون تكرار ﴿مَن﴾، ولا يأتي حذفها إلا في ضرورة الشعر».

لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (11).

لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ.

أي: للعَبدِ ملائِكةٌ يتعاقَبونَ عليه، فيأتيه بعضُهم عَقِبَ بَعضٍ، مِن بينِ يَدَيه ومِن خَلْفِه فيَحفظُونَه ويَحرُسونَه بأمرِ الله وإذنِه، فإذا جاء القدرُ خلَّوا بينَه وبينَه.[20]

---

(20) اختُلِف في معنى: ﴿لَهُ مُعَقِّباتٌ﴾ في هذه الآية من جهتين: الأولى: اختُلِف في مرجع الضـــمير في ﴿لَهُ﴾ على ثلاثة أقوال:

الأول: أنّها ترجع إلى الله تعالى.

الثاني: أنها ترجع إلى النبي – ﷺ –.

الثالث: أنها ترجع إلى المِلك مِن ملوك الدنيا.

والثانية: اختلف في معنى: «المعقبات» على قولين: الأول: الملائكة التي تتعقب على العبد لحفظه وحفظ أعماله.

الثاني: الحرس الذي يتعاقب على الأمير.

ورجَّح ابنُ جرير (١٣/ ٤٦١ – ٤٦٢) مستندًا إلى اللغة، وإلى دلالة السياق أن «الهاء في قوله: ﴿لَهُ مُعَقِّباتٌ﴾ مِن ذِكْر» مَن «التي في قوله: ﴿ومَن هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾، وأنّ المعقِّبات من بين يديه ومِن خلفه، هي حَرَسُه وجلاوِزَتُه».

وعلَّل ذلك بقوله: «وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالصـــواب لأنّ قوله: ﴿لَهُ مُعَقِّباتٌ﴾ أقرب إلى قوله: ﴿ومَن هُوَ مُسْـــتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ منه إلى: ﴿عالِمُ الغَيْبِ﴾، فهي لقربها منه أولى بأن تكون من ذِكْرِه، وأن يكون المعنيُّ بذلك هذا، مع دلالة قول الله: ﴿وإذا أرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُـــوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ﴾ على أنّهم المعنيُّون بذلك، وذلك أنّه –جلّ ثناؤه– ذَكَر قومًا أهل معصـــيةٍ له وأهل ريبة، يستخفون بالليل ويظهرون بالنهار، ويمتنعون عند أنفسهم بحرس يحرسهم، ومَنَعَةٍ تمنعهم من أهل طاعته، أن يحولوا بينهم وبين ما يأتون من معصية الله، ثم أخبر أنّ الله –تعالى ذِكْره– إذا أراد بهم سوءًا لم ينفعهم حرسهم، ولا يدفع عنهم حفظهم».

وذكر ابنُ عطية (٥/ ١٨٤ – ١٨٥) أنه على القول بعود الضـمير على اسم الله تعالى المتقدم ذكره تكون «المعقِّبات»: الملائكة الحفظة على العباد أعمالهم، والحفظة لهم أيضًا.

وعلى القول بعود الضـــمير على المذكور في قوله: ﴿ومَن جَهَرَ بِهِ ومَن﴾ وكذا باقي الضـــمائر التي في الآية، تكون «المعقّبات»: حرس الرجل وجلاوزته الذين يحفظونه، والآية على هذا في الرؤساء الكافرين.

وذكر ابنُ عطية قولًا رابعًا في عود الضمير «في ﴿لَهُ﴾ للعبد المؤمن، على معنى: جعل الله له».

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ

أي: إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بقومٍ مِن نعمةٍ فيُزيلُها عنهم، حتى يغيِّروا ما كانوا عليه مِن طاعةِ اللهِ بمَعصيتِه، وشُكرِه بكُفرِه، وأسبابِ رِضاه بأسبابِ سَخَطِه، فإذا غيَّروا غيَّرَ عليهم؛ جزاءً وِفاقًا.

كما قال تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ [الأنفال: 53- 54].

وقال سُبحانه: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ [الشورى: 30].

وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ

وبيَّن أن هذا القول إنّما يصِحُّ على القول بكون «المعقبات» هي الملائكة، ثم رجَّحه مستندًا إلى الدلالة العقلية قائلًا: «وهذا التأويل عندي أقوى؛ لأنّ غرض الآية إنّما هو التنبيه على قدرة الله تعالى، فذكر استواء مَن هو مُستَخْف ومَن هو سارِبٌ وأنّ له معقّبات مِن الله تحفظه في كل حال، ثم ذكر أن الله لا يُغيّر هذه الحالة من الحفظ للعبد حتى يُغيّر ما بنفسه».

وذكر ابنُ عطية (٥/ ١٨٧) لقوله تعالى: ﴿مِن أَمْرِ اللهِ﴾ معنيين بناءً على ما تقدم: الأول: «مَن جعل ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾ بمعنى: يحرسونه، كان معنى قوله: ﴿مِن أَمْرِ اللَّهِ﴾ يراد به: المعقبات».

ثم وجَّهه بقوله: «فيكون في الآية تقديم وتأخير، أي: له معقِّباتٌ مِن أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، قال أبو الفتح: فـ ﴿مِن أَمْرِ اللَّهِ﴾ في موضع رفع؛ لأنه صفة لمرفوع وهي المعقبات».

الثاني: «ومَن تأوَّل الضمير في ﴿لَهُ﴾ عائد على العبد، وجعل المعقبات: الحرس، وجعل الآية في رؤساء الكافرين؛ جعل قوله: ﴿مِن أَمْرِ اللَّهِ﴾ بمعنى: يحفظونه بزعمه مِن قَدَر الله، ويدفعونه في ظنه عنه، وذلك لجهالته بالله تعالى».

ثم علَّق عليه بقوله: «وبهذا التأويل جعلها المتأولون في الكافرين، قال أبو الفتح: فـ ﴿مِن أَمْرِ اللَّهِ﴾ على هذا في موضع نصب، كقولك: حفظت زيدًا من الأسد، فـ» من الأسد «معمول لـ» حفظت.

أي: وإذا شاء اللهُ أن يُصيبَ قَومًا بهلاكٍ وعَذابٍ وشِدَّةٍ، فإرادتُه لا بُدَّ أن تنفُذَ فيهم؛ فإنَّه لا رادَّ لِمَا قضاه اللهُ.

كما قال تعالى: وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ [الأنعام: 147].

وقال سُبحانه: فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ [البروج: 16].

وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ

أي: وما للقومِ الذين أرادَهم الله بسوءٍ مِن أحدٍ سِواه يتولَّى أمرَهم، ولا ناصِرٍ مِن دُونِه يمنَعُهم مِن عذابِه.

كما قال تعالى: وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ [يونس: 107].

سورةُ الرَّعدِ

الآيات (12-14)

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ
وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ
شَدِيدُ الْمِحَالِ (13) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا
كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (14)

غريب الكلمات:

الصَّوَاعِقَ: جمعُ صاعِقةٍ: وهي النَّارُ التي تنزِلُ مِن السَّماءِ عندَ اشتدادِ الرَّعد، وأصلُ (صعق): يدلُّ على شِدَّةِ صَوتٍ.

الْمِحَالِ: أي: القُوَّةِ والأخذِ، والمكْرِ والإهلاكِ، يُقالُ: ماحَلْتُه مِحالًا: إذا قاوَيتَه حتى يَبينَ لك أيُّكما أشَدُّ، والمَحْلُ: الشِّدَّةُ والمكْرُ والكَيدُ.

تفسير الآيات:

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12).

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا.

أي: اللهُ هو الذي يُريكم البرَقَ– وهو النُّورُ اللَّامعُ الذي يسطَعُ في السَّماءِ مِن بينِ السَّحابِ– خوفًا مِن الصَّواعِقِ، وطَمعًا في الانتفاعِ بالمطَرِ.[21]

وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ.

أي: ويخلق اللهُ السَّحابَ الثِّقالَ بما يَحمِلُه مِن مياهٍ كثيرةٍ.

وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (13).

---

(21) ذكر ابنُ عطية (٥/ ١٨٨) أنّ البرق: رُوِي فيه عن النبي – ﷺ – أنّه مخراق بيد ملَك يزجر به السحاب، ثم علَّق عليه بقوله: «وهذا أصحُّ ما روي فيه».

ونقل عن بعض العلماء أنه قال: البرق: اصطكاك الأجرام.

ثم انتقده قائلًا: «وهذا عندي مردود».

وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ.

أي: ويُنزِّهُ الرَّعدُ اللهَ عن النَّقائصِ تنزيهًا مُتلبِّسًا بحَمدِه تعالى، بوَصفِه بصِفاتِ الكَمالِ؛ محبَّةً له وتعظيمًا.

كما قال تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ [الإسراء: 44].

عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((أقبلَتْ يهودُ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فقالوا: يا أبا القاسِمِ، إنَّا نسألُك عن خَمسةِ أشياءَ، فإنْ أنبأتَنا بهِنَّ، عرَفْنا أنَّك نبيٌّ واتَّبَعناك، فأخَذ عليهم ما أخَذ إسرائيلُ على بَنيه؛ إذ قالوا: اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ، قال: هاتوا،... قالوا: أخبِرْنا ما هذا الرَّعدُ؟ قال: ملَكٌ مِن ملائكةِ اللهِ عزَّ وجلَّ مُوكَّلٌ بالسَّحابِ، بيَدِه أو في يَدِه مِخراقٌ مِن نارٍ، يزجُرُ به السَّحابَ، يسوقُه حيثُ أمَرَ الله. قالوا: فما هذا الصوتُ الذي يُسمَعُ؟ قال: صوتُه، قالوا: صدقْتَ...)).[22]

وعن رجُلٍ مِن بني غِفارٍ صَحِبَ رسولَ الله - ﷺ - قال: سَمِعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقولُ: ((إنَّ اللهَ يُنشئُ السَّحابَ، فيَنطِقُ أحسَنَ المَنطِقِ، ويضحَكُ أحسَنَ الضَّحِكِ)).[23]

---

(22) أخرجه الترمذيُّ (3117) (جزءًا منه)، وأحمد (274/1) (2483) واللفظ له.
قال الترمذي: حسنٌ غريب.
وذكر ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (16/8) أن له طرُقًا يقوّي بعضها بعضًا.
وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (161/4)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (3117).

(23) أخرجه أحمد (23686)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (5220)، والبيهقي في ((الأسماء والصفات)) (412/2).
قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (219/2): رجاله رجال الصحيح.

وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ.

أي: وتنزِّهُ الملائكةُ اللهَ؛ خوفًا منه سُبحانه.

وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللّهِ.

أي: ويُرسِلُ اللهُ الصَّواعِقَ مِن السَّماءِ، فيُهلِكُ بها مَن يشاءُ مِن خلقِه، وهؤلاء الكفارُ المكذبونَ للرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، معَ هذه الآياتِ التي أراهم اللهُ، يجادلونَ في قدرةِ الله على البعثِ، وإعادةِ الخلقِ، وفي وحدانيته.[24]

وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ.

أي: واللهُ قويٌّ، شديدُ الأخذِ، عظيمُ الكيدِ والمكرِ بمن طغَى وتمادَى في الكُفرِ به.

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ (14).

وصحح إسناده ابن حجر في ((تحفة النبلاء)) (78)، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (1920).

قال ابنُ كثير: (والمرادُ– واللهُ أعلمُ– أنَّ نطقَها الرعدُ، وضحكَها البرقُ).

((تفسير ابن كثير)) (441/4).

(24) ذكر ابنُ عطية (٥/ ١٩١) في قوله تعالى: ﴿وهُمْ يُجادِلُونَ في الله﴾ عدة احتمالات لاسم الإشارة «هم»، فقال: «يجوز أن تكون إشارة إلى جدال اليهود المذكور، وتكون الواو واو حال، أو إلى جدال الجبار المذكور.

ويجوز –إن كانت الآية على غير سـبب– أن يكون قوله: ﴿وهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ إشـارة إلى جميع الكفرة مِن العرب وغيرهم، الذين جُلبت لهم هذه التنبيهات».

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ.

أي: لِلَّه وحدَه الدَّعوةُ الحقُّ والصِّدقُ- وهي كلمةُ التَّوحيدِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ- فهو المُستحِقُّ وَحدَه للعبادةِ والدُّعاءِ دونَ ما سواه.

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ.

أي: والذين يَعبُدُهم المُشرِكونَ ويَدعونَهم مِن دونِ اللهِ لا يُجيبونَ دُعاءَهم بأيِّ شَيءٍ ممَّا يُريدونَه- قليلًا كان أو كثيرًا- ولا ينفعونَهم إلَّا كما ينتَفِعُ من يبسطُ كفَّيه إلى الماءِ، ويدعوه ليرتفِعَ إلى فَمِه، وهذا غيرُ ممكنٍ؛ فالماءُ جمادٌ لا يشعُرُ ببَسطِ كفَّيه ولا بعطَشِه، ولا يقدِرُ أن يُجيبَ دُعاءَه ويبلُغَ فَمَه، وكذلك ما يدعونَه؛ جمادٌ لا يُحِسُّ بدُعائِهم، ولا يستطيعُ إجابَتَهم، ولا يقدِرُ على نَفْعِهم.

وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ.

أي: وما دُعاءُ الكافرينَ لآلهتِهم إلَّا في ضياعٍ وخَسارٍ؛ لأنَّهم لا ينتَفِعونَ بدُعائِهم.

كما قال تعالى: وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ * وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ [النحل: 86- 87].

وقال سُبحانه: وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ [فصلت: 48].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ [الأحقاف: 5].

سورةُ الرَّعدِ

الآيات (15–18)

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ **(15)** قُلْ
مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا
وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ
شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ
(16) أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ
عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ
فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ **(17)**
لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ
مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ **(18)**

غريب الكلمات:

بِالْغُدُوِّ: جمع غَداةٍ: وهي أولُ النَّهَارِ، وأصلُ (غدو): يدُلُّ على زَمانٍ.

وَالْآصَالِ: جمع أُصُلٍ، والأُصُلُ: جَمْعُ أَصِيلٍ: وهو آخِرُ النَّهَارِ، وأصلُ (أصل): يدلُّ على ما كان مِن النَّهارِ بعدَ العَشيِّ.

الْقَهَّارُ: أي: الغالبُ، والقاهرُ لكلِّ شيءٍ وحدَه، والقهرُ: الغلبةُ والتذليلُ معًا، وأصلُ (قهر): غلبةٌ وعلوٌّ.

أَوْدِيَةٌ: جمعُ الوادي، وسُمِّي واديًا لخروجِه وسيلانِه، وأصلُ الوادي: الموضعُ الذي يسيلُ فيه الماءُ، ومنه سُمِّي المفْرَجُ بينَ الجبلينِ واديًا.

زَبَدًا رَابِيًا: أي: غُثاءً طافيًا عاليًا فوقَ الماءِ، وأصلُ (زبد): يدلُّ على تولُّدِ شَيءٍ عن شَيءٍ، وأصلُ (ربو): يدلُّ على الزّيادةِ والنَّماءِ والعُلُوِّ.

حِلْيَةٍ: أي: ما يُتحَلَّى ويُتزَيَّنُ به، وهو المَصوغُ من الذَّهَبِ والفِضَّةِ، وأصلُ (حلي): يدُلُّ على تحسينِ الشَّيءِ.

جُفَاءً: مُطَّرَحًا مَرميًّا؛ مِن قَولِهم: جفأ الوادي غُثاءَه: إذا رماه، وأصلُ (جفأ): يدلُّ على نبُوِّ الشَّيءِ عن الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (15).

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا.

أي: ولله يَسجُدُ مَن في السَّمَواتِ ومَن في الأرضِ طائعينَ ومكرهينَ؛ سجودَ ذلٍّ وقهرٍ وخضوعٍ، فكلُّ أحدٍ خاضعٌ لقدرِ اللهِ، مقهورٌ تحتَ سلطانِه، لا يقدرُ أن يمتنعَ عليه.[25]

كما قال تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ [الحج: 18].

---

(25) ذكر ابنُ عطية (٥/ ١٩٤) أنّ ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿ولِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّماواتِ والأَرْضِ طَوْعًا وكَرْهًا﴾ «تقع على الملائكة عمومًا، وسجودهم طوعًا بلا خلاف، وأمّا أهل الأرض فالمؤمنون منهم داخلون في مَن سجودهم طَوْعٌ، وأمّا سجود الكفرة فهو الكُرْه».

ثم ذكر صنفين مِن الكفار يدخلون في الكُره بناءً على المقصود بالسجود في الآية: «فإن جعلنا السجود هذه الهيئة المعهودة فالمراد مِن الكفرة مَن يضمه السَّيْفُ إلى الإسلام –كما قال قتادة– فيسجد كرهًا؛ إمّا نفاقًا، وإمّا أن يكون الكره أول حاله فتستمر عليه الصفة، وإن صح إيمانه بعد.

وإن جعلنا السجود الخضوع والتذلل على حسب ما هو في اللغة ...

فيدخل الكفار أجمعون في ﴿مَن﴾؛ لأنه ليس مِن كافر إلا ويلحقه مِن التذلل والاستكانة بقدرة الله أنواع أكثر مِن أن تحصى بحسب رزاياه واعتباراته».

ونقل عن النحاس والزجاج قولهم: «إنّ الكره يكون في سجود عصاة المسلمين وأهل الكسل منهم».

ثم انتقدهم قائلًا: «وإن كان اللفظ يقتضي هذا فهو قَلِق مِن جهة المعنى المقصود بالآية».

وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ.

أي: ولِلَّهِ تَسجُدُ ظِلالُ المَخلوقاتِ في أوَّلِ النَّهارِ، وفي آخِرِه.[26]

كما قال تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ [النحل: 48–49].

قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (16).

قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ.

أي: قُل– يا مُحمَّدُ– لِمُشركي قَومِك: مَن خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ ومالِكُهما ومُدَبِّرُهما؟ قُل: ربُّها الذي خلَقَها وأوجَدَها هو اللهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحدَه دونَ غَيرِه.

(26) نقل ابنُ عطية (٥/ ١٩٤) حكاية الزجاج «أنّ بعض الناس قال: إنّ الظلال هنا يراد بها: الأشخاص».
ثم قال: «وضعَّفه أبو إسحاق».

قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا.

أي: قُل- يا محمَّدُ- لِمُشركي قَومِك: أفاتَّخَذتُم مِن دونِ اللهِ آلهةً لا تملِكُ أن تجلِبَ لأنفُسِها نفعًا، ولا أن تدفَعَ عن أنفُسِها ضَرًّا، فضلًا عن غيرِها، فتَعبُدونَها وتترُكونَ عِبادةَ اللهِ الذي بِيَدِه وحدَه النَّفعُ والضَّرُّ؟!

كما قال تعالى: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ [يونس: 18].

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- للمُشركِينَ مِن قَومِك: هل يَستوي الأعمى الذي لا يُبصِرُ شَيئًا، والبَصيرُ الذي يُبصِرُ؟ لا شَكَّ أنَّهما لا يستويانِ، فكذلك لا يستوي المَوَحِّدُ لله، والمُشرِكُ به.

أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ.

أي: وهل تستوي الظُّلُماتُ التي لا يُرى فيها شيءٌ، والنُّورُ الذي تُرى فيه الأشياءُ بوُضوحٍ؟ لا شَكَّ أنَّهما لا يستويانِ؛ فكذلك لا يستوي الشِّركُ والإيمانُ.

أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ.

أي: أجَعَلوا لله شُرَكاءَ يَعبُدونَهم مع اللهِ؛ خَلَقوا مثلَ خَلقِ اللهِ- تعالى وتقَدَّسَ-، فتَشابهَ خَلقُ الشُّركاءِ بخَلقِ اللهِ عِندَهم، فجَعَلوها شُرَكاءَ لله بسبَبِ ذلك؟! أي: ليس الأمرُ كذلك، فلا عُذرَ للمُشركِينَ في عبادتِها، وهم مُعترِفونَ بأنَّها لا تخلُقُ شيئًا.

كما قال تعالى: هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [لقمان: 11].

قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.

أي: قُل- يا محمَّدُ- للمُشركِينَ: اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيءٍ، وقد خلَقَكم وخلَقَ آلهَتَكم، فكيف تعبُدونَها مع اللهِ، وهو المستحِقُّ للعبادةِ وَحدَه؟!

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [البقرة: 21].

وقال تعالى: أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ [الأعراف: 191].

وقال سُبحانه: وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ [النحل: 20، 21].

وقال عزَّ وجلَّ حاكيًا قولَ إبراهيمَ– عليه السَّلامُ– لِقَومِه: قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ [الصافات: 95– 96].

وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ.

أي: واللهُ هو الواحِدُ الذي لا ثانيَ له، الغالِبُ لجميعِ خَلقِه، المستحِقُّ للعبادةِ وَحدَه دون ما سواه.

أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ (17).

أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا.

أي: أنزلَ اللهُ مِن السَّحابِ مطَرًا فاحتمَلَتْه الأوديةُ بقَدْرِ كِبَرِها وصِغَرِها، فأخذ كلُّ وادٍ بحسَبِ سَعَتِه.

وهذا مَثَلٌ ضرَبَه اللهُ، فشَبَّه تعالى ما أنزَلَه من العِلمِ والإيمانِ إلى القُلوبِ بالماءِ الذي أنزَلَه من السَّماءِ إلى الأرضِ، وشبَّه القلوبَ الحاملةَ للعِلمِ والإيمانِ بالأوديةِ الحاملةِ للسَّيلِ؛ فقَلبٌ كبيرٌ يسَعُ عِلمًا عَظيمًا، كوادٍ كبيرٍ يسَعُ ماءً كثيرًا، وقلبٌ صغيرٌ يسَعُ عِلمًا قَليلًا، كوادٍ صغيرٍ يسَعُ ماءً قليلًا،

فحَمَلت القلوبُ مِن هذا العِلمِ بقَدَرِها، كما سالت الأوديةُ مِن الماءِ بقَدَرِها، فهذا تقسيمٌ للقُلوبِ بحَسَب ما تحمِلُه مِن العِلمِ والإيمانِ إلى مُتَّسِعٍ وضَيِّقٍ.

فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا.

أي: فاحتمَلَ الماءُ الذي يسيلُ في الأوديةِ بعد نزولِ المطَرِ زبَدًا مُرتفِعًا فوقَ الماءِ طافيًا على سَطحِه.

وهذا بيانٌ للحَقِّ في ثَباتِه والباطِلِ في اضمِحلالِه؛ فالحَقُّ هو الماءُ الباقي الذي أنزَلَه اللهُ مِن السَّماءِ، والباطِلُ هو الزَّبَدُ الذي لا يُنتفَعُ به، فإنَّه يضمَحِلُّ ويَعْلَقُ بجَنَباتِ الأوديةِ، وتدفَعُه الرِّياحُ، فكذلك يذهَبُ الكُفرُ ويتلاشَى.

وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ.

أي: ومِن الذي يُوقِدُ عليه الناسُ في النَّارِ؛ ليذوبَ، مِن معادِنِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ؛ طلبًا لِحليةٍ يتزيَّنونَ بها، ويتجمَّلون، أو من معادِنِ الحديدِ، والنحاسِ، والرصاصِ وغيرِها؛ طلَبًا لِمَتاعٍ يتمَتَّعونَ به، وينتفِعونَ، كالأواني والآلاتِ المصنوعةِ- خبثٌ يعلو فوقَ ما أُذيب مِن تلك المعادِنِ، كما يعلُو الزَّبَدُ على الماءِ، فلا يُنتفعُ به، ويذهبُ باطلًا.

كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ.

أي: كما مثَّل اللهُ بقاءَ الإيمانِ وبُطلانَ الكُفرِ إذا اجتمعا، بما يبقى مِن ماءِ السَّيلِ وخالِصِ المَعادِنِ التي يُوقَدُ عليها في النَّارِ- كذلك يُبيِّنُ اللهُ مثَلَ الحَقِّ والباطِلِ.

فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء.

أي: فأمَّا الزَّبَدُ- الذي كان يعلو السَّيلَ، ويعلو المعادِنَ عند الإيقادِ عليها- فيذهَبُ ضائِعًا مُضمحِلًّا مَرمِيًّا لا يُنتفَعُ به.

وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ.

أي: وأمَّا ما ينفَعُ النَّاسَ- مِن الماءِ الصَّافي والمعادِنِ الخالِصةِ- فيبقى في الأرضِ ويَستقِرُّ، فينتفِعُ به النَّاسُ.

عن أبي موسى الأشعريِّ رضيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ مثَلَ ما بعَثَني اللهُ به- عزَّ وجلَّ- من الهُدى والعِلمِ، كمَثَلِ غيثٍ أصاب أرضًا، فكانت منها طائفةٌ طَيِّبةٌ قَبِلَت الماءَ، فأنبَتَت الكَلأَ والعُشبَ الكثيرَ، وكان منها أجادِبُ أمسَكَت الماءَ، فنفعَ اللهُ بها النَّاسَ، فشَرِبوا منها وسَقَوا ورَعَوا، وأصاب طائفةً منها أخرى، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمسِكُ ماءً ولا تُنبِتُ كَلأً؛ فذلك مثَلُ مَن

فَقُهَ في دينِ اللهِ، ونفعَه بما بعَثَني اللهُ به، فعَلِم وعلَّم، ومثَلُ مَن لم يرفَعْ بذلك رأسًا، ولم يقبَلْ هُدى اللهِ الذي أُرسِلتُ به)).[27]

كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ.

أي: كما مثَّل اللهُ لكم هذا المَثَلَ لبقاءِ الحقِّ وذَهابِ الباطِلِ، كذلك يضرِبُ اللهُ لكم الأمثالَ؛ ليتَّضِحَ لكم الحقُّ مِن الباطِلِ.[28]

كما قال تعالى: وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ [العنكبوت: 43].

وقال سُبحانه: وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [الزمر: 27].

وقال عزَّ وجلَّ: وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [الحشر: 21].

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (18).

---

(27) رواه البخاري (79)، ومسلم (2282) واللفظ له.

(28) نقل ابنُ عطية (٥/ ١٩٧) عن ابن عباس أن «قوله تعالى: ﴿مِنَ السَّماءِ﴾ يريد به: الشَّرْعَ والدِّين، وقوله تعالى: ﴿فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ يريد به: القلوب، أي: أخذ النبيل بحظِّه، والبليد بحظِّه».

ثم انتقده مستندًا إلى ضعف إسناد الأثر، وإلى مخالفة لغة العرب قائلًا: «وهذا قول لا يصح –والله أعلم– عن ابن عباس؛ لأنه ينحو إلى أقوال أصحاب الرموز، وقد تمسَّك به الغزاليُّ وأهل ذلك الطريق، ولا وجه لإخراج اللفظ عن مفهوم كلام العرب لغير عِلَّةٍ تدعو إلى ذلك».

إلا أنه وجَّهه على فرض صحته بقوله: «وإن صَحَّ هذا القول عن ابن عباس فإنما قصد أنّ قوله تعالى: ﴿كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحَقَّ والباطِلَ﴾ معناه: الحق الذي يتقرر في القلوب، والباطل الذي يعتريها».

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى.

أي: للذينَ أجابوا ربَّهم فآمَنوا به وأطاعوه ورَسولَه؛ الجزاءُ الحسَنُ في الدُّنيا، والجنَّةُ في الآخرةِ.

كما قال سُبحانَه مُخبِرًا عن ذي القَرنينِ أنَّه قال: قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا [الكهف: 87- 88].

وقال تعالى: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ [يونس: 26].

وقال سُبحانه: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ [النحل: 30].

وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ.

أي: والذين لم يُؤمِنوا برَبِّهم ولم يطيعوه ورَسولَه؛ لو أنَّهم يَملِكونَ كُلَّ شَيءٍ في الأرضِ، ويَملِكونَ مِثلَه معه، لقدَّموه فداءً؛ لتخليصِ أنفُسِهم من عذابِ النَّارِ يومَ القيامةِ.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [آل عمران: 91].

أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ.

أي: أولئك الكُفَّارُ- الذين لم يستجيبوا لربِّهم- يُؤخَذون يومَ الحسابِ بجميعِ ذُنوبِهم صَغيرِها وكبيرِها، ولا يَغفِرُ اللهُ شيئًا منها، فلا يقبَلُ لهم حَسَنةً، ولا يتجاوَزُ لهم عن سيِّئةٍ.

كما قال تعالى: وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا [الكهف: 49].

وقال سُبحانه: فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ [المدثر: 8 – 10].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: قال رسولُ اللهِ – ﷺ –: ((من حُوسِبَ يومَ القيامةِ عُذِّبَ. فقلتُ: أليس قد قال اللهُ عزَّ وجلَّ: فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا [الانشقاق: 8]؟! فقال: ليس ذاك الحِسابَ، إنَّما ذاك العَرضُ، مَن نوقِشَ الحِسابَ يومَ القيامةِ عُذِّبَ)).[29]

وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ.

أي: ومسكَنُ الكُفَّارِ ومَقامُهم يومَ القيامةِ نارُ جهنَّمَ، وبئسَ الفِراشُ جهنَّمُ.

(29) رواه البخاري (103)، ومسلم (2876)، واللفظ له.

سورةُ الرَّعدِ

الآيات (19–24)

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19)
الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ
وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (21) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22)
جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ
مِنْ كُلِّ بَابٍ (23) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (24)

غريب الكلمات:

الْأَلْبَابِ: العقولِ الزكيَّة، مفردُها لُبٌّ، وأصْل اللُّبِّ: الخُلُوصُ والجَوْدةُ، والشَّيء المُنتقَى.

الْمِيثَاقَ: الميثاق: عقدٌ مؤكَّدٌ بيمينٍ وعهدٍ، أو العهدُ المُحكَمُ، وأصله: العقدُ والإحكامُ.

وَيَدْرَءُونَ: أي: يَدفَعونَ، وأصلُ (درأ): يدُلُّ على دفعِ الشَّيءِ.

عُقْبَى الدَّارِ: أي: تصيرُ الجنَّةُ آخِرَ أمْرِهم، والعُقبَى: العاقِبةُ، وهي الشَّيءُ الذي يقَعُ عَقِبَ شَيءٍ آخَرَ، وقد اشتُهِرَ استِعمالُها في آخِرةِ الخيرِ، وأصلُ (عقب): يدُلُّ على تأخيرِ شَيءٍ، وإتيانِه بعدَ غَيرِه.

عَدْنٍ: أي: إِقَامَةٍ، واستقرارٍ، وثباتٍ، يُقَال: عدن بالمكانِ إذا أقامَ به، واستقرَّ، وأصلُ (عدن): يدلُّ على الإقامةِ.

تفسير الآيات:

أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (19).

أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى.

أي: أهذا الذي يعلَمُ أنَّ القُرآنَ الذي أنزَلَه اللهُ عليك– يا محمَّدُ– حَقٌّ لا شَكَّ فيه، فيؤمِنُ به ويتَّبِعُه– كالذي هو أعمَى القَلبِ، لا يعلَمُ ما أنزَلَ اللهُ في كِتابِه، ولا يفهَمُه ولا يتَّبِعُه؟! أفهذا كهذا؟! لا يستويانِ.[30]

كما قال تعالى: أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ [الزمر: 9].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ [غافر: 58].

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ.

أي: إنَّما يتَّعِظُ بآياتِ اللهِ ويَعتَبِرُ بها أصحابُ العُقولِ السَّليمةِ الصَّحيحةِ.

---

(30) ذكر ابنُ عطية (٥/ ١٩٩) أنّ هذه الآية نزلت في حمزة بن عبد المطلب وأبي جهل بن هشام.
وقيل: في عمار بن ياسر وأبي جهل، ثم علَّق بقوله: «وهي بعد هذا مثال في جميع العالَم».

كما قال تعالى: الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ [الزمر: 18].

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20).

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ.

أي: الَّذين يُوفُونَ بالعهدِ الذي بينَهم وبينَ الله تعالى مِن الأوامرِ والنَّواهي، والعهدِ الذي بينَهم وبينَ النَّاسِ، كالوفاءِ بالعقودِ في المعاملاتِ، وأداءِ الأماناتِ إلى غير ذلك.

وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ.

أي: ولا يقعُ منهم نقضٌ لهذا العهدِ المؤكَّد، فهم مستمرُّون على الوفاءِ به.(31)

وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ (21).

---

(31) ذكر ابنُ عطية (٥/ ١٩٩) أنّ النقض المشـــار إليه في الآية يحتمل احتمالين: الأول: ما قاله قتادة: مِن أن يراد به جنس المواثيق.

الثاني: أن يشير إلى ميثاق معين، وهو الذي أخذه الله على عباده وقت مسحه على ظهر أبيهم آدم – عليه السلام –. وهو قول مقاتل.

وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ.

أي: ومِن صفاتِ أُولي الألبابِ أنَّهم يَصِلونَ كُلَّ ما أمَرَ اللهُ بوَصلِه؛ مِن الإيمانِ باللهِ وطاعتِه، وعبادتِه وَحدَه لا شريكَ له، وصلةِ الأرحامِ، وغيرِ ذلك.

وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ.

أي: ويخشونَ رَبَّهم، إن خالفوا أوامِرَه فقَطَعوا ما أمَرَهم بوَصلِه.

وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ.

أي: ويخافونَ مُناقشةَ اللهِ لهم عن جميعِ أعمالِهم وعدمِ مَغفرةِ ذُنوبِهم.

وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22).

وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ.

أي: والذين صبَروا على طاعةِ اللهِ وعن مَعاصيه، وعلى أقدارِه المؤلِمةِ، طَلَبًا لرِضوانِه وثَوابِه.

وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ.

أي: وأدَّوُا الصَّلواتِ بأركانِها وشُروطِها، وواجِباتِها، في مَواقيتِها، خاشعينَ فيها.

وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً.

أي: وأخرجوا الزَّكَواتِ المفروضةَ، والنَّفَقاتِ الواجِبةَ مِن الأموالِ التي رزَقناهم، فأعطَوها لمُستحِقّيها في الخفاءِ وفي العَلَنِ.(32)

كما قال تعالى: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [البقرة: 274].

وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ.

أي: ويدفعونَ بالعملِ الصالحِ السيِّئَ مِن الأعمالِ.

كما قال تعالى: إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ [هود: 114].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ [فصلت: 34-35].

أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ.

أي: أولئك- المؤمنونَ الذين ذكَرْنا أوصافَهم- لهم في الآخِرةِ الجنَّةُ.

(32) قال ابنُ عطية (٥/ ٢٠٠): «ورُوِي أنّ هذه الآية نزلت في الأنصار، ثم بقيت عامَّةً بعد ذلك في كلِّ مَن اتَّصَف بهذه الصِّفات».

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (23).

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ.

أي: لهم جَنَّاتُ مُكثٍ وإقامةٍ دائِمةٍ، يدخُلونَها هم والصَّالِحونَ مِن آبائِهم وأمَّهاتِهم وأزواجِهم وأولادِهم.

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ [الطور: 21].

وَالمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ.

أي: والملائِكةُ يَدخُلونَ على المؤمنينَ مِن كُلِّ بابٍ؛ للسَّلامِ عليهم، وتهنِئتِهم بدُخولِ الجنَّةِ.

سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (24).

أي: تقولُ الملائكةُ لأهلِ الجنَّةِ: سَلَّمَكم اللهُ- أيُّها المؤمِنونَ- من العذابِ والأهوالِ والشُّرورِ في الآخرةِ؛ بسبَبِ صَبرِكم في الدُّنيا، فنِعمَ عُقبى الدَّارِ الجنَّةُ.

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن رسولِ اللهِ - ﷺ - أنَّه قال: ((هل تدرونَ أوَّلَ مَن يدخُلُ الجنَّةَ مِن خَلقِ اللهِ؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، قال: أوَّلُ من يدخُلُ الجنَّةَ مِن خَلقِ اللهِ

الفُقَراءُ المهاجِرونَ، الذين تُسَدُّ بهم الثُّغورُ، ويُتَّقى بهم المكارِهُ، ويموتُ أحَدُهم وحاجتُه في صَدرِه لا يستطيعُ لها قَضاءً، فيقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ لِمَن يشاءُ مِن ملائكتِه: ائتُوهم فحَيُّوهم، فتقولُ الملائكةُ: نحن سُكَّانُ سمائِك، وخِيرتُك مِن خَلقِك، أفتأمُرُنا أن نأتِيَ هؤلاءِ فنُسَلِّمَ عليهم؟! قال: إنَّهم كانوا عبادًا يعبُدوني لا يُشرِكونَ بي شيئًا، وتُسَدُّ بهم الثُّغورُ، ويُتَّقى بهم المكارِهُ، يموتُ أحَدُهم وحاجتُه في صَدرِه، لا يستطيعُ لها قضاءً، قال: فتأتيهم الملائكةُ عند ذلك، فيدخُلونَ عليهم مِن كُلِّ بابٍ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)).[33]

(33) أخرجه أحمد في ((المسند)) (6570)، وعبد بن حميد في ((المنتخب)) (352)، والبزار في ((المسند)) (2457)، وابن حبان في ((الصحيح)) (7421).

قال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (136/4): رواتُه ثقاتٌ.

وصحَّح إسنادَه الدمياطي في ((المتجر الرابح)) (328)، وأحمد شاكر في ((المسند)) (77/10)، وصحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح الترغيب)) (3183).

سورةُ الرَّعدِ

الآيات (25–27)

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (25) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (26) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (27)

غريب الكلمات:

يَبْسُطُ: أي: يُوسِّعُ، وأصلُ (بسط): يدُلُّ على امتِدادِ الشَّيءِ.

وَيَقْدِرُ: أي: يُضَيِّقُ، يقال: قَدَرْتُ عليه الشيءَ: إذا ضيَّقته، كأنَّما جعلتَه بقَدْرٍ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونِهايتِه.

مَتَاعٌ: أي: متعةٌ، وانتفاعٌ، وأصل (متَع): المنفعةُ وامتدادُ مدَّةٍ في خيرٍ.

تفسير الآيات:

وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (25).

وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ.

أي: والذين لا يُوفونَ بعهدِ الله، مِن بعدِ تأكيدِه عليهم، وتغليظِه، وتوثيقِه، إنما يقابلونَه بالإعراضِ والنقضِ.

وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ.

أي: ويَقطعونَ ما أمَرَ اللهُ بوَصلِه؛ من الإيمانِ والعمَلِ الصَّالِحِ، والأرحامِ.

وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ.

أي: ويُفسِدونَ في الأرضِ بالكُفرِ والمعاصي والصَّدِّ عن سبيلِ اللهِ.

أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ.

أي: أولئك لهم الطَّردُ والإبعادُ مِن رَحمةِ اللهِ، ولهم ما يَسوءُهم في جهنَّمَ.(34)

---

(34) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٢٠٢) أنّ ﴿سوء الدار﴾ ضد ﴿عقبى الدار﴾، ثم رجّح مستندًا إلى الظاهر أنها دار الآخرة، فقال: «والأظهر في الدار هنا: أنها دار الآخرة، ويحتمل أنها الدنيا على ضعف».

اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء وَيَقَدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ (26).

اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء وَيَقَدِرُ.

أي: اللهُ وَحدَه هو الذي يُوَسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يشاءُ، ويُضَيِّقُ الرِّزقَ على من يَشاءُ، بحَسَبِ ما تَقتضيه حِكمتُه.

كما قال تعالى: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [العنكبوت: 62].

وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

أي: وفَرِحَ الكُفَّارُ– الذين وسَّعَ اللهُ أرزاقَهم– بنعيمِ الحياةِ الدُّنيا فَرَحَ بَطَرٍ وطُغيانٍ، وغَفَلوا عن الآخرةِ.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [يونس: 7– 8].

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ.

أي: وما نعيمُ الحياةِ الدُّنيا في جَنبِ نَعيمِ الآخرةِ إلَّا شَيءٌ حَقيرٌ، وتمتعٌ ضئيلٌ لا قيمةَ له، سرعانَ ما ينقضي ويزولُ.

كما قال تعالى: قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا [النساء: 77].

وقال سُبحانه: فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ [التوبة: 38].

وعن المُستَورِد رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ – ﷺ –: ((واللهِ ما الدُّنيا في الآخرةِ إلَّا مِثلُ ما يجعَلُ أحَدُكم إصبَعَه هذه في اليَمِّ،[35] فلْينظُرْ بم ترجِعُ؟)).[36]

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((الدُّنيا مَتاعٌ، وخَيرُ مَتاعِ الدُّنيا المرأةُ الصَّالحةُ)).[37]

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (27).

---

(35) اليَمُّ: البَحرُ.
يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (1/44).
(36) رواه مسلم (2858).
(37) رواه مسلم (1467).

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ.

أي: ويقولُ الكُفَّارُ من قَومِك– يا مُحمَّدُ–: هلَّا أُنزِلَ على مُحمَّدٍ مُعجِزةٌ مِن رَبِّه؛ حتى نؤمِنَ بأنَّه رَسولُ اللهِ.

كما قال تعالى: وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا [الإسراء: 90 – 93].

قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَاب.

أي: قُلْ– يا مُحمَّدُ– لِقَومِك الذين يقترِحونَ عليك إنزالَ آيةٍ: إنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يشاءُ مِن عِبادِه فيَخذُلُه عن الإيمانِ بي، ويهدي إليه من رجَعَ وتاب فيُوَفِّقُه لاتِّباعي، وليس ضلالُ مَن يضِلُّ منكم لأنَّه لم تنزلْ عليَّ آيةٌ مِن ربِّي وفقَ ما تقترحونَ، ولا هدايةُ مَن يهتدي منكم بسببِ إنزالها عليَّ، وإنما ذلك بيدِ اللهِ وحدَه.

كما قال تعالى: اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ [الشورى: 13].

سورةُ الرَّعدِ

الآيات (28–30)

الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (29) كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (30)

غريب الكلمات:

طُوبَى لَهُمْ: أي: طيبُ العيشِ لهم، أو: الخيرُ وأقصَى الأُمنيةِ، أو: طوبى: شجرةٌ في الجنةِ، وقيل: بل هي إشارةٌ إلى كلِّ مستطابٍ في الجنةِ، وأصلُ (طيب): خلافُ الخبيثِ.

مَآبٍ: أي: مرجعٍ، ومنقلَبٍ، وأصلُ (أوب): الرجوعُ.

مَتَابِ: أي: تَوبتي ومَرْجعي وأَوْبتي، وأصلُ (توب): يدلُّ على الرجوعِ.

تفسير الآيات:

الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28).

الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ.

أي: ويهدي اللهُ الذين آمنوا[38] وتسكُنُ قُلوبُهم، ويزولُ قَلَقُها واضطِرابُها بذِكرِ اللهِ تعالى، ومِن ذِكرِه: القُرآنُ.[39]

أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ.

أي: ألا بذِكرِ اللهِ تَسكُنُ قُلوبُ المؤمنينَ، ويزولُ عنها قلَقُها واضطِرابُها، وحَريٌّ بها ألَّا تطمئِنَّ لشَيءٍ سِوى ذِكرِه سُبحانَه.

---

(38) قال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا هذا بدلٌ مِن قولِه: أَنَابَ، والمعنى: يَهْدي الذين آمنوا).
((تفسير ابن الجوزي)) (494/2).
ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (518/13)، ((تفسير القرطبي)) (315/9).

(39) اختُلِف في معنى ذِكْر الله الوارد في الآية على قولين: الأول: ذِكْرُ الله على الإطلاق فبه تسكن القلوب، ويدخل في ضمنه: الحَلِف، فإذا حلف الرجل لرجل بالله صدقه واطمأن لذكر الله.
الثاني: ذكر الله هنا القرآن.
وقد رجّح ابنُ القيم (٢/ ٨٨) القول بأنّه القرآن مستندًا إلى الدلالة العقلية، فقال: «فإنّ القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين، ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا مِن القرآن، فإنّ سكون القلب وطمأنينته من يقينه، واضطرابه وقلقه مِن شكّه، والقرآن هو المُحَصِّل لليقين الدافع للشكوك والظنون والأوهام، فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به، وهذا القول هو المختار».
ثُمَّ انتقد (٢/ ٨٩) القولَ بأنّه الحلِف مستندًا إلى الدلالة العقلية، فقال: «وأمّا تأويل مَن تأوّله على الحَلِف ففي غاية البُعْد عن المقصود، فإنّ ذكر الله بالحلف يجري على لسان الصادق والكاذب، والبَرّ والفاجر، والمؤمنون تطمئن قلوبهم إلى الصادق ولو لم يحلف، ولا تطمئن قلوبهم إلى مَن يرتابون فيه ولو حلف».

الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (29).

أي: الذين آمَنوا بكُلِّ ما يجِبُ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا– تصديقًا لهذا الإيمانِ– الأعمالَ الصَّالِحَةَ– أولئك لهم حالٌ طَيِّبةٌ، وحُسنُ مَرجِعٍ؛ وذلك بما ينالونَ مِن رِضوانِ اللهِ وكَرامتِه في الدُّنيا والآخرةِ، فلهم كَمالُ الخيرِ والطُّمَأنينةِ، والفَرَحِ والسُّرورِ، ولهم النَّعيمُ الدَّائمُ، ومِن جملةِ ذلك شَجرةُ طُوبَى التي في الجنَّةِ.[40]

كما قال تعالى: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [النحل: 97].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ، عن رَسولِ اللهِ – ﷺ –: ((أنَّ رَجُلًا قال له: يا رسولَ اللهِ، طوبى لِمَن رآك، وآمَنَ بك، قال: طوبى لِمَن رآني وآمَنَ بي، ثمَّ طوبى، ثمَّ طوبى، ثمَّ طوبى لِمَن آمنَ بي ولم يَرَني،

(40) علَّق ابنُ عطية (٥/ ٢٠٣) على القول بأنّ طوبى اسم شجرة في الجنة بقوله: «وبهذا تواترت الأحاديث، قال رسول الله – ﷺ –: «طوبى: شجرة في الجنة، يسير الراكب المُجِدُّ في ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرؤوا إن شئتم: ﴿وظل ممدود﴾ [الواقعة: ٣٠]»».

وذكر ابنُ كثير (٨/ ١٤٢) قول ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة: فرح وقُرة عين.

وقول عِكْرِمة: نعم ما لهم.

وقول الضحاك: غبطة لَهُم.

وقول إبراهيم النَّخعي: خير لهم.

وقول قتادة: هي كلمة عربية، يقول الرجل: طوبى لك، أي: أصبت خيرًا.

وقال في رواية: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾: حسنى لهم، ثم علَّق عليها بقوله: «وهذه الأقوال شيء واحد، لا منافاة بينها».

قال له رجلٌ: وما طُوبى؟ قال: شجرةٌ في الجنَّةِ مَسيرةَ مئةِ عامٍ، ثِيابُ أهلِ الجنَّةِ تخرُجُ مِن أكمامِها[41]).[42]

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (30).

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ.

أي: كما أرسَلْنا الأنبياءَ مِن قَبلِك بوَحيِنا، وأعطَيناهم كُتُبَنا- يا محمَّدُ- أرسَلْناك بهذا القُرآنِ إلى قومٍ قد مَضَت مِن قَبلِهم جماعاتٌ أرسَلْنا لهم رسُلًا، فلستَ ببِدْعٍ مِن الرُّسُلِ حتى يَستنكِرَ قومُك رسالتَك، ويَطلُبوا منك آياتٍ مُقترَحةً لإثباتِها، ولك بهم أُسوةٌ حَسَنةٌ حين كَذَّبَتْهم أقوامُهم واستهزَأتْ بهم في عدَمِ الإجابةِ إلى آياتِهم المُقتَرَحةِ، فصبروا على ذلك، وكما أوقَعْنا بأسَنا بأولئك، فلْيحذَرْ قومُك مِن حُلولِ العذابِ بهم.

---

(41) الأكمامُ: جمع الكِمّ: وهو وِعاءُ الطَّلعِ وغِطاءُ النَّوْرِ.
يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: 273).
(42) أخرجه أحمد (11673)، وأبو يعلى في ((المسند)) (1374)، وابن حبان في ((الصحيح)) (7413)، وابن أبي داود في ((البعث)) (68)، وأصله في ((صحيح مسلم)) (2828).
حسَّنه ابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (47)، والألباني في ((صحيح الجامع)) (3918).

كما قال تعالى: كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [التوبة: 69–70].

لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ.

أي: أرسَلْناك– يا مُحمَّدُ– إلى قَومِك لِتقرَأَ عليهم أعظَمَ الآياتِ والمُعجِزاتِ، وهو القُرآنُ الذي لستَ تقولُه مِن تِلقاءِ نَفسِك، بل هو وحيٌ أوحاه اللهُ إليك ليَهتَدوا به، ولم نُرسِلْك لإجابةِ ما يقترِحونَ مِن الآياتِ؛ ليَحصُلَ لهم الاهتداءُ للحقِّ.

كما قال تعالى: وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ [النمل: 92].

وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ.

أي: والحالُ أنَّ قومَك– يا مُحمَّدُ– يَجحَدونَ ويُكَذِّبونَ بوَحدانيَّةِ اللهِ، ويُنكِرون اسمَ اللهِ (الرَّحمن) فلم يُقابِلوا رَحمتَه– التي أعظَمُها أنْ أرسَلْناك إليهم رَسولًا، وأنزَلْنا عليك القُرآنَ ليَهتَدوا به– بالقَبولِ والشُّكرِ والانقيادِ للحَقِّ، بل قابلوها بالإنكارِ والرَّدِّ، والاستمرارِ على الكُفرِ والشِّركِ.

كما قال تعالى: وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ [الأنبياء: 36].

وقال سُبحانه: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ [الفرقان: 60].

قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ.

أي: إنْ كفَرَ هؤلاء الذين أرسلتُك إليهم- يا مُحمَّدُ- بالرَّحمنِ، فقل لهم: الذي كفَرْتُم به أنا مُؤمِنٌ به، ومُقِرٌّ ومُعترِفٌ له بالربوبيَّةِ والألوهيَّةِ؛ فهو ربِّي الذي أوجَدَني وربَّاني بنِعَمِه، لا أكفُرُ إحسانَه كما كفَرْتُموه أنتم، وهو اللهُ الذي لا معبودَ بحَقٍّ سِواه.

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ.

أي: على اللهِ وَحدَه اعتمَدْتُ في جميعِ أموري، وإليه وحدَه مرجِعي وأَوْبَتي، فلا أرجعُ في جميعِ شُؤوني- مِن عباداتٍ وحاجاتٍ- إلَّا إليه.[43]

(43) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (530/13)، ((تفسير ابن كثير)) (460/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 418).
ومِن المفسِّرين مَن حمَل (المتاب) على العموم، أي: في الدُّنيا بالرجوعِ إليه والتوبةِ، وفي الآخرةِ بالمعادِ.
وهو اختيارُ القرطبيِّ والبقاعي.
يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (318/9)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (340/10).

سورةُ الرَّعدِ

الآيتان (31–32)

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا
أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ
بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (31)
وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (32)

غريب الكلمات:

يَيْئَسِ: أي: يَعلَمْ ويتبيَّنْ، على إحدَى لغاتِ العربِ، وقِيل: هو مِن اليأسِ المعروفِ، أي: انتفاءِ الطمعِ، وقطعِ الرَّجاءِ.

قَارِعَةٌ: أي: داهيةٌ تَفجَؤُهم، وسُمِّيَت بذلك لأنَّها تقرَعُ النَّاسَ، أي: تَضرِبُهم بشِدَّتِها، وأصلُ (قرع): يدلُّ على ضَربِ شَيءٍ.

فَأَمْلَيْتُ: أي: أمهلْتُ وأطلْتُ المُدَّةَ، والإملاءُ: الإمهالُ على جِهةِ الاستدراجِ، وهو مِن المُلاوةِ مِن الزَّمَنِ، وأصلُ (ملو): يدلُّ على امتدادٍ في شَيءٍ؛ زَمانٍ أو غيرِه.

تفسير الآيتين:

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاء اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (31).

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى.

أي: ولو أنَّ كِتابًا مِن الكُتُبِ السَّابِقةِ– التي أنزلَها اللهُ على رُسُلِه – اشتمَلَ على ما هو أكثَرُ مِن الهدايةِ، فكان مصدرًا لإيجادِ العَجائِبِ المَحسوسةِ، بحيث يُقرأُ على الجِبالِ فتتَزحزَحُ عن أماكِنِها، أو على الأرضِ فتتصَدَّعُ وتنشَقُّ، أو على الموتَى في قُبورِهم فيَسمعونَ الكلامَ ويُجيبونَه– لكان هذا القُرآنُ المُوحَى إلى مُحمَّدٍ – ﷺ – هو المتَّصفَ بذلك دونَ غَيرِه مِن الكتُبِ، أو هو أَولى منها بذلك، فكيفَ تَقترِحونَ آيةً غَيرَه؟ ثمَّ إنَّه لم يكُنْ ثمَّ كتابٌ إلهيٌّ كذلك.(44)

---

(44) اختُلِف في جواب: ﴿لو﴾ في الآية على أقوال: الأول: أنّ جوابها مُقدَّم متعلق بقوله تعالى: ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾.

الثاني: أنّ جوابها محذوف، تقديره: لكان هذا القرآن.

الثالث: أنّ جوابها محذوف، تقديره: لو كان هذا كله لما ءامنوا.

وقد وجَّه ابنُ جرير (١٣/ ٥٣١) القول الأول، وهو قول ابن عباس من طريق العوفي، وابن جريج، وقول مجاهد، وابن كثير المكي بأنّه مِن المؤخر بمعنى التقديم، وأنّ المعنى عليه: «ولو أن هذا القرآن سُــيِّرَت به الجبال أو قُطِّعَت به الأرض لكفروا بالرحمن».

كما قال تعالى: لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ [الحشر: 21].

وقال سُبحانه: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا * وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا [الإسراء: 89 – 93].

بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا.

أي: ليس ذلك من شأنِ الكُتُبِ الإلهيَّةِ؛ فذلك كُلُّه إلى اللهِ، وبيَدِه وَحدَه، فمَرجِعُ الأمورِ كلِّها إليه، ما شاء كان، وما لم يشأْ لم يكُنْ، يهدي من يشاءُ، ويُضِلُّ من يشاءُ، ويأتي بالآياتِ التي تقتَضيها حِكمتُه؛ فهو الذي أنزل الكِتابَ، وهو الذي يخلقُ العجائِبَ إن شاء، وليس ذلك إلى غيرِه.

وبنحوه ابنُ عطية (٥/ ٢٠٥)، وعلَّق على القول الثاني –وهو قول قتادة، والضحاك، ومقاتل، وابن زيد– بقوله: «وتتَضَمَّن الآيةُ على هذا تعظيم القرآن، وهذا قول حسن يُحرِزُ فصاحة الآية، وقوله: ﴿بل لله الأمر جميعا﴾ يعضده، ويترتب مع الآخَرين».

أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاء اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا.

أي: أفلَم يعلَمِ المؤمنونَ أنْ لو يشاءُ اللهُ لهدَى النَّاسَ كُلَّهم إلى الإيمانِ به مِن غيرِ إيجادِ آيةٍ؟ فاللهُ تعالى قادرٌ على هدايتِهم جميعًا، ولكنَّه لا يشاءُ ذلك، فالهدايةُ والإضلالُ بِيَدِه وَحدَه؛ يهدي مَن يشاءُ بغيرِ إنزالِ آيةٍ، ويُضِلُّ مَن يشاءُ معَ إنزالِها.(45)

وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ.

وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ.

أي: ولا يزالُ الكفارُ تصيبُهم بسبَبِ ما صنعوا مِن الكُفرِ والتَّكذيبِ؛ داهيةٌ تَفجَؤُهم، ونازلةٌ شديدةٌ تنزِلُ بهم، وبلاءٌ وعذابٌ.

---

(45) ذكر ابنُ جرير (١٣/ ٥٣٥ – ٥٣٧) اختلاف أهل العربية في معنى قوله تعالى: ﴿أفلمْ ييأس﴾، وأنّ فرقة منهم قالت: ﴿ييأس﴾ بمعنى: يعلم.

وأن الفرقة الأخرى ذكرت أنّ اليأس على وجهه.

ثم ذكر أنّ أهل التأويل من السلف على القول الأول.

ورجّحه (١٣/ ٥٣٨) مستندًا إلى الإجماع واللغة، فقال: «والصواب من القول في ذلك ما قاله أهل التأويل: إنّ تأويل ذلك: أفلم يتبين ويعلم.

لإجماع أهل التأويل على ذلك، والأبيات التي أنشدناها فيه».

وقد فسره بمعنى اليأس أبو العالية، فذكر أنّ المعنى: قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا واحدًا.

وذكر ابنُ عطية (٥/ ٢٠٦) أنّ اليأس: «يحتمل أن يكون في هذه الآية على بابه، وذلك أنه لما أبعد إيمانهم في قوله: ﴿ولَوْ أنَّ قُرْآنًا﴾ الآية على التأويلين في المحذوف المقدَّر، قال في هذه الآية: أفلم ييئس المؤمنون مِن إيمان هؤلاء الكفرة علمًا منهم أن لو شاء الله لهدى الناس جميعًا».

أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ.

أي: أو تقَعُ هذه القارعةُ قريبًا مِن ديارِهِم؛ فيَفْزَعونَ منها، ويُصيبُهم الخوفُ مِن تَجاوُزِها إليهم، وهم مُصِرُّون على كفرِهم.(46)

حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ.

أي: حتى يأتيَ وعدُ اللهِ وهو موتُهم، أوْ قيامُ السَّاعةِ عليهم، فإذا جاءَ وعدُ اللَّهِ المحتومُ حَلَّ بهم مِنْ عذابِه ما هو الغايةُ في الشِّدَّةِ.

إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ.

أي: إنَّ اللهَ لا يَنقُضُ وعدَه، وكلُّ ما وعَدَ اللهُ به فهو كائِنٌ لا محالةَ.

كما قال تعالى: وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [الروم: 6].

---

(46) اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿أو تحلُ قريبًا من دارهم﴾ على قولين: الأول: أنّه رسول الله – ﷺ –، فالمعنى: أو تحل أنت، يا محمد.

وهو قول أكثر السلف.

والثاني: أنها القارعة.

قاله الحسن.

ورجّح ابنُ كثير (٨/ ١٥٢) القول الثاني مستندًا إلى السياق، فقال: «وهذا هو الظاهر مِن السِّياق».

وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (32).

وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ.

أي: إنْ يَستهزِئْ بك هؤلاءِ المُشرِكونَ مِن قَومِك- يا مُحَمَّدُ-، فاصبِرْ على أذاهم، فلسْتَ أوَّلَ رَسولٍ كُذِّبَ وعُودِيَ؛ فقد استهزأَ الكُفَّارُ برُسُلِي الذين أرسَلْتُهم مِن قَبلِك، فأمهلتُ أولئك الكُفَّارَ مُدَّةً، ثمَّ أحللْتُ عليهم عذابي حين أصَرُّوا على كُفرِهم وتكذيبِهم.

فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ.

أي: فانظُرْ- يا مُحَمَّدُ- كيف كان عقابي الشَّديدُ لأولئك الكافرينَ، ألمْ أُذِقْهم أليمَ العَذابِ، وأَجعَلْهم عِبرةً وعِظةً؟ فلْيعتَبِرْ كُفَّارُ قَومِك بذلك، ولْيَحذَروا مِن نِقمَتي وعذابي، ولا يغتَرُّوا بإمهالي لهم.

كما قال تعالى: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ [غافر: 5].

وقال سُبحانه: أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ [غافر: 21-22].

سورةُ الرَّعدِ

الآيتان (33-34)

أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (34)

تفسير الآيتين:

أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33).

أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ.

أي: أفاللهُ القائِمُ على شُؤونِ جَميعِ عِبادِه- ومِن ذلك أرزاقُهم- العالِمُ بهم وبأحوالِهم، الرَّقيبُ على ما يَكسِبونَه مِن أعمالٍ، الحافِظُ لها، والمُجازي عليها خيرًا وشَرًّا، كمَن ليس بهذه الصِّفةِ مِن الأصنامِ التي لا تسمَعُ ولا تُبصِرُ، ولا تنفَعُ ولا تضُرُّ؟! كلَّا، ليس الأمرُ كذلك.

وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء قُلْ سَمُّوهُمْ.

أي: اللهُ هو القائِمُ بأرزاقِ هؤلاء المُشرِكينَ، والمدبِّرُ لأمورِهم، والرَّقيبُ الحافِظُ عليهم أعمالَهم، ومع ذلك جعلوا لله شُرَكاءَ مِن خَلقِه يَعبدونَهم معه! قُلْ- يا محمَّدُ- لأولئك الكُفَّارِ: سَمُّوا هؤلاء الذين أشَركتُموهم في عبادةِ اللهِ بالأسماءِ التي يستحِقُّونَها: هل هي خالقةٌ رازقةٌ، محييةٌ مميتةٌ، أم هي مخلوقةٌ، لا تملِكُ ضرًّا ولا نفعًا؟ فإذا سَمَّوْها فوصَفوها بما تستحِقُّه مِن الصفاتِ، تبيَّنَ ضلالُهم، فما يسمُّونَهم إلا بما يعلمون أنَّ تلك الأسماءَ لهم حقيقةٌ، كحجرٍ وخشبٍ وكوكبٍ وأمثالِها.

قال تعالى: مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ [يوسف: 40].

وقال سُبحانه: إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى [النجم: 23].

أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ.

أي: أم الأمرُ – أيُّها المُشرِكونَ – أنَّكم تُخبِرونَ اللهَ بأنَّ معه شُركاءَ في الأرضِ، وهو لا يعلَمُ بذلك؟! وما لا يعلَمُ عالِمُ الغَيبِ والشهادةِ أنَّه موجودٌ، فباطِلٌ، ولو كان موجودًا لعَلِمَه.

أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ.

أي: أم الأمرُ أنَّكم ادَّعيتُم لله شُرَكاءَ بمُجَرَّد ظواهِرِ أقوالِكم التي لا حقيقةَ لها، وإنَّما هي ظَنٌّ وكَذِبٌ، وباطِلٌ.

بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ.

أي: ليس لله شَريكٌ في السَّموات ولا في الأرضِ، ولكِنْ زُيِّنَ للمُشرِكينَ كُفرُهم وشِركُهم وكَذِبُهم على اللهِ.

وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ.

أي: وصُرِفوا– لكُفرِهم بالله– عن طريقِ الإيمانِ المُستقيمِ المُوصِل إليه وإلى دارِ كرامتِه.

كما قال تعالى: إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا [الكهف: 57].

وقال سُبحانه: وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [يس: 9، 10].

وقال عزَّ وجلَّ: وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ [العنكبوت: 38].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1– قراءةُ وَصُدُّوا بضمِّ الصادِ على ما لم يسَمَّ فاعِلُه، أي: أُضِلُّوا عن الإيمانِ، قيل: صَدَّهم اللهُ عن اتِّباعِ سَبيلِه؛ لكُفرِهم به، وقيل: صَدَّهم الشَّيطانُ بتَزيينِه.(47)

(47) قرأ بها عاصمٌ وحمزةُ والكسائي ويعقوبُ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/298).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (13/550)، ((معاني القراءات)) للأزهري (2/58)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 373)، ((تفسير الشوكاني)) (3/102).

2- قراءةُ وَصَدُّوا بفتح الصادِ، بإسنادِ الفعل إلى الفاعلِ، أي: صَدُّوا بأنفُسِهم وأعرَضوا عن الإيمانِ، وقيل: صَدُّوا غيرَهم عن الإيمانِ فأضلُّوهم، وقيل: إنَّهم لَمَّا زُيِّنَ لهم ما هم فيه وأنَّه حقٌّ، دَعَوا إليه وصَدُّوا النَّاسَ عن اتِّباعِ طريقِ الرُّسلِ.(48)

وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ.

أي: ومَن يُضِلَّه اللهُ عن طريقِ الحَقِّ، ويَخذُلْه عن اتِّباعِه، فلا أحدَ يُوفِّقُه إلى الخيرِ.

كما قال تعالى: وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا [النساء: 88].

وقال سُبحانه: مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [الأنعام: 39].

لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِن وَاقٍ (34).

لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

أي: لهؤلاءِ الكُفَّارِ عَذابٌ في الحياةِ الدُّنيا بالقتلِ والأسرِ والخِزيِ، والمصائبِ والأمراضِ والآفاتِ.

---

(48) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/298).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (2/58)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 373)، ((تفسير ابن كثير)) (4/464).

وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ.

أي: ولَعذابُهم في الآخرةِ أشَدُّ وأغلَظُ مِن عذابِهم في الدُّنيا.

وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ.

أي: وما لهؤلاءِ الكافرينَ مِن أحدٍ يَقيهم ويمنَعُهم مِن عذابِ اللهِ.

سورةُ الرَّعدِ

الآيات (35–37)

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (35) وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (36) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (37)

غريب الكلمات:

مَثَلُ الْجَنَّةِ: أي: صِفَتُها أو شَبَهُها، وأصلُ (مثل): يدلُّ على مُناظرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ.

أُكُلُهَا: أي: ثمرُها، وأصْلُ (أكل): يدُلُّ على تَّنَقُّصٍ.

تفسير الآيات:

مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (35).

مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ.

أي: صِفةُ الجنَّةِ– التي وعدَ اللهُ بها المتَّقينَ في الآخرةِ– أنَّ الأنهارَ تجري من تحتِ قُصورِها وأشجارِها.

كما قال تعالى: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى [محمد: 15].

أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا.

أي: ما يُؤكَلُ في الجنَّةِ مِن ثمارِها دائِمٌ لأهلِها، لا ينفَدُ ولا ينقَطِعُ عنهم، وظِلُّها أيضًا دائِمٌ لا يزولُ.

كما قال تعالى: وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ [الواقعة: 30 – 33].

تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ.

أي: تلك الجنَّةُ العاليةُ الأوصافِ هي عاقِبةُ المُتَّقينَ الذين امتَثَلوا ما أمَرَهم اللهُ به، واجتَنَبوا ما نهاهم عنه، وعاقِبةُ الكافرينَ باللهِ هي النَّارُ.

كما قال تعالى: تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا [مريم: 63].

وقال سُبحانه: لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ [الحشر: 20].

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (36).

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ.

أي: والذين آتيناهم التَّوراةَ والإنجيلَ مِمَّن آمنَ بك– يا مُحمَّدُ– مِن اليَهودِ والنَّصارى، يَفرحونَ بالقُرآنِ الذي أنزَلَه اللهُ إليك.

كما قال تعالى: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ [البقرة: 121].

وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ.

أي: ومن أهلِ المِلَلِ والأديانِ المتحَزِّبينَ عليك– يا محمَّدُ– مَن يكَذِّبُ ببعضِ ما في القُرآنِ الكريمِ.

قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ.

أي: قل– يا مُحمَّدُ–: إنَّما أمَرَني اللهُ بعِبادتِه وَحدَه، وألَّا أُشرِكَ به شيئًا.

كما قال تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ [آل عمران: 64].

وقال سُبحانه: قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [الأنبياء: 108].

إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ.

أي: إلى اللهِ وَحدَه أدعو النَّاسَ إلى طاعتِه مُخلِصينَ له العبادةَ، وإلى اللهِ مَرجِعي في جميعِ أموري، وإليه مَصيري.

وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا.

أي: وكما أنزَلْنا الكتُبَ على الرُّسُلِ السَّابِقينَ بلُغاتِهم، كذلك أنزَلْنا عليك – يا مُحَمَّدُ – القُرآنَ مُحكَمًا مُتقَنًا؛ لِتَحكُمَ به بين النَّاسِ، بلسانِ العَرَبِ.

كما قال تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا [النساء: 105].

وقال سُبحانه: كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ [هود: 1].

وقال عزَّ وجَلَّ: كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [فصلت: 3].

وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ.

أي: ولَئن اتَّبَعتَ– يا محمَّدُ– أهواءَ تلك الأحزابِ الكافرةِ بعد ما جاءك مِن العِلمِ الذي علَّمَك اللهُ إياه، ما لك مِن اللهِ مِن ناصرٍ ينصُرُك ويتولَّى أمورَك، ولا واقٍ يقيك عذابَ اللهِ؛ فاحذَرْ مِن اتِّباعِ أهوائِهم.(49)

كما قال تعالى: وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ [البقرة: 120].

وقال سُبحانه: وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ [البقرة: 145].

---

(49) قال ابن تيمية: (ومُتابعتُهم فيما يختصُّون به من دينهم وتوابعِ دينهم؛ اتِّباعٌ لأهوائهم، بل يحصلُ اتِّباعُ أهوائهم بما هو دون ذلك).

((اقتضاء الصراط المستقيم)) (1/99).

وقال ابنُ عاشور: (واتِّباع أهوائهم يحتمِلُ السعيَ لإجابة طَلِبَتِهم إنزالَ آيةٍ غير القرآن؛ تحذيرًا من أن يسأل اللهَ إجابتَهم لما طلبوه، كما قال لنوح عليه السَّلامُ: فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ [هود: 46]).

((تفسير ابن عاشور)) (13/160).

سورةُ الرَّعدِ

الآيات (38–40)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (38) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (39) وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (40)

تفسير الآيات:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (38).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً.

أي: ولَقد بَعَثْنا– يا محمَّدُ– إلى الأمَمِ الماضيةِ رُسُلًا مِن قَبلِك، فكانوا بشَرًا مِثلَهم، وجَعَلْنا لهم أزواجًا يَنكِحونَهنَّ، ورَزَقْناهم أولادًا؛ فلستَ أوَّلَ رَسولٍ بشَريٍّ أُرسِلَ إلى النَّاسِ، حتى يستغرِبَ قَومُك إرسالَك إليهم.

وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ.

أي: ولا يَقدِرُ أيُّ رَسولٍ أرسَلَه اللهُ تعالى إلى قومٍ أن يأتيَ قَومَه بمُعجِزةٍ تدُلُّ على صِدقِه، إلَّا بأمرِ اللهِ؛ فهو الذي يأتي بالمُعجِزةِ، ويؤيِّدُ بها رسولَه متى شاء.

لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ.

أي: لكلِّ أجلٍ قدَّره الله، ولكلِّ أمرٍ قضاه، كتابٌ أُثبِت فيه، ووقت معلومٌ يقعُ فيه، لا يتقدَّمُ عليه ولا يتأخَّرُ، فلا تكونُ آيةٌ إلاَّ بأجلٍ قد قضاه الله تعالى في كتابٍ.(50)

يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (39).

(50) اختُلِف في معنى قوله تعالى: ﴿لكل أجل كتاب﴾ على قولين: الأول: لكل أجل مِن آجال الخلق كتاب عند الله.
قاله الحسن.
الثاني: أنّه مِن المقدم والمؤخر، والمعنى: لكل كتاب ينزل من السماء أجل.
قاله الضحاك، ومقاتل.
ونقل ابنُ جرير (١٣/ ٥٥٩) قول الضحاك، ثم وجَّهه بقوله: «وهذا على هذا القول نظير قول الله: ﴿وجَآءت سكرة الموت بالحق﴾ [ق: ١٩]، وكان أبو بكر - رضي الله عنهما - يقرؤه: (وجَآءَتْ سَكْرَةُ الحَقِّ بِالمَوْتِ)، وذلك أنّ سكرة الموت تأتي بالحق، والحق يأتي بها، فكذلك الأجل له كتاب، وللكتاب أجل».
ونقله ابنُ عطية (٥/ ٢١١ - ٢١٢) عن الضحاك، والفراء، ثم انتقده مستندًا إلى الدلالة العقلية بقوله: «وهذا العكس غير لازم، ولا وجه له؛ إذ المعنى تامٌّ في ترتيب القرآن، بل يمكن هدم قولهما بأنّ الأشياء التي كتبها الله تعالى أزلية باقية كتنعيم أهل الجنة وغيره يوجد كتابها ولا أجل له».

يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ.

أي: يمحو اللهُ ما يشاءُ مِن الأقدارِ المكتوبةِ، فيمحو ما يشاءُ محوَه مِن شَقاوةٍ أو سعادةٍ، أو رِزقٍ أو عُمُرٍ، أو خيرٍ أو شَرٍّ، وغيرِ ذلك، ويُبقي منها ما يشاءُ، وذلك فيما يكونُ في أيدي الملائكةِ مِن صحفٍ.(51)

---

(51) اختُلِف في معنى المحو والإثبات المذكور في الآية على أقوال: الأول: أنّه عامٌّ في كُلِّ ما أراد الله محوه أو إثباته مِن رزق وأجلٍ وسعادة وشقاوة وغير ذلك.

وهذا قول عمر، وابن مسعود، وابن عباس من طريق العوفي، وقول كعب الأحبار، وأبي وائل، والضحاك.

الثاني: يمحو الله ما يشاء مِن أمور عباده فيغيره، إلا الشقاء والسعادة فإنهما لا يغيران.

وهو قول ابن عباس من طريق سعيد بن جبير، ومجاهد من طريق منصور.

الثالث: يمحو الله ما يشاء ويثبت ما يشاء في كتاب سوى أُم الكتاب، وهما كتابان أحدهما: أم الكتاب لا يغيره ولا يمحو منه شيئًا كما أراد.

وهذا قول ابن عباس من طريق عكرمة، وقول عكرمة.

الرابع: أنّه الناسخ والمنسوخ، فيمحو المنسوخ، ويثبت الناسخ.

وهو قول ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة، وقتادة، وزيد بن أسلم، وابن جريج، ومقاتل بن سليمان، وعبد الرحمن بن زيد.

الخامس: يمحو مَن جاء أجلُه ويُثبِتُ مَن لم يجئْ أجلُه.

وهو قول الحسن، ومجاهد من طريق ابن أبي نجيح.

السادس: يغفر ما يشاء مِن ذنوب عباده، ويترك ما يشاء فلا يغفره.

وهو قول سعيد بن جبير.

السابع: يمحو مِن ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، ويُثبِتُ ما فيه ثواب وعقاب.

وهو قول الضحاك، والكلبي.

الثامن: يمحو ما يشاء بالتوبة، ويثبت مكانها حسنات.

وهو قول عكرمة.

التاسع: يمحو القمرَ، ويثبت الشمس مكانه.

وهو قول السدي.

وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ.

أي: وعندَ اللهِ أصلُ الكتابِ، وهو اللَّوحُ المَحفوظُ.(52)

ورجّح ابنُ جرير (٥٦٩ – ٥٧١) مستندًا إلى السياق، والسنة القول الخامس، وعلَّل ذلك بقوله: «وذلك أنّ الله –تعالى ذِكْرُه– تَوَعَّد المشركين الذين سألوا رسول الله – ﷺ – الآيات بالعقوبة، وتهددهم بها، وقال لهم: ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب﴾، يُعلمُهم بذلك أنّ لقضائه فيهم أجلًا مُثبتًا في كتاب، هم مُؤَخَّرون إلى وقت مجيء ذلك الأجل. ثم قال لهم: فإذا جاء ذلك الأجل محى اللهُ ما شاء مِمَّن قد دنا أجله وانقطع رزقه، أو حان هلاكه، أو اتضاعه من رفعة، أو هلاك مال، فيقضي ذلك في خلقه، فذلك مَحْوُه، ويثبت ما شاء مِمَّن بقي أجله ورزقه وأكله، فيتركه على ما هو عليه، فلا يمحوه. وبهذا المعنى جاء الأثر عن رسول الله – ﷺ –».

ثم ساق حديث أبي الدرداء، وأدخل تحته أثر ابن عباس من رواية عطاء، وأثر قيس بن عُبَاد.

ورجّح ابنُ عطية (٥/ ٢١٢) القول الثاني مستندًا إلى العموم، فقال: «وتَخَبَّط الناسُ في معنى هذه الألفاظ، والذي يَتَلَخَّص مِن مسلكها أن نعتقد أنّ الأشياء التي قدَّرها الله تعالى في الأزل وعلِمَها بحالٍ ما لا يَصِحُّ فيها مَحْوٌ ولا تبديل، وهي التي كُتِبَت في أم الكتاب، وسبق بها القضاءُ، وهذا مرويٌّ عن ابن عباس وغيرِه مِن أهل العلم، وأمّا الأشياء التي قد أخبر الله تعالى أنّه يبدل فيها وينقل كغفر الذنوب بعد تقريرها، وكنسخ آية بعد تلاوتها واستقرار حكمها، ففيها يقع المحو والتثبيت فيما يقيده الحفظة ونحو ذلك، وأما إذا رد الأمر للقضاء والقدر فقد محا الله ما محا، وثبت ما ثبت».

واستدرك على القول الخامس بأنّ ذلك في الآجال، وعلى قول قيس بن عباد بأنّ المحو والإثبات في العاشر من محرم بقوله: «وهذا التخصيص في الآجال أو غيرها لا معنى له، وإنما يحسن من الأقوال هنا ما كان عامًّا في جميع الأشياء».

واستدرك (٥/ ٢١٣) على القول الأول والثالث بأنّها سهلة المعارضة.

وعلَّق ابنُ كثير (٨/ ١٦٥) على القول الأول بقوله: «ومعنى هذه الأقوال: أنّ الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء، وقد يستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان وهو الثوري، عن عبد الله بن عيسى، عن عبد الله بن أبي الجَعْد، عن ثَوْبان، قال: قال رسول الله – ﷺ –: «إنّ الرجل لَيُحرَم الرزق بالذنب يُصيبه، ولا يَرُدُّ القَدَرَ إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البِرّ»».

ثم ساق أحاديث وآثارًا في نفس المعنى.

(52) اختلف في المراد بأُمِّ الكتاب على أقوال: الأول: الحلال والحرام.

الثاني: جملة الكتاب وأصله.

وهو قول ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة، وقول الضحاك، وقتادة.

الثالث: هو علم الله تعالى بما خلق وما هو خالق.

الرابع: الذِّكر.

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (40).

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ.

أي: وإنْ أريناك- يا محمَّدُ- في حياتِك بعضَ العذابِ الذي نعِدُ به المُشرِكينَ لكُفرِهم، أو توفَّيناك قبلَ أن نُرِيَك عذابَهم؛ فليس عليك سوى تبليغِهم رسالةَ اللهِ في كِلا الحالَينِ.[53]

ورجّح ابنُ جرير (١٣/ ٥٧٣) القول الثاني مستندًا إلى السياق، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَن قال: وعنده أصل الكتاب وجملته، وذلك أنّه -تعالى ذِكْرُه- أخبر أنه يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، ثم عقَّب ذلك بقوله: ﴿وعنده أم الكتاب﴾، فكان بيّنًا أنّ معناه: وعنده أصل المثبت منه والممحو، وجملته في كتاب لديه».

وبنحوه قال ابنُ عطية (٥/ ٢١٣ - ٢١٤).

(53) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٢١٥) في قوله: ﴿نعدهم﴾ احتمالين، فقال: «وقوله: ﴿نعدهم﴾ يحتمل أن يريد به: المضار التي توعد الله بها الكفار، فأطلق فيها لفظة الوعد لما كانت تلك المضار معلومة مصرَّحًا بها.

ويحتمل أن يريد: الوعد لمحمد - ﷺ - في إهلاك الكفرة، ثم أضاف الوعد إليهم لما كان في شأنهم».

وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ.

أي: وعلينا نحنُ- لا عليك- محاسَبةُ العبادِ، ومُجازاتُهم على أعمالِهم؛ ثوابًا أو عِقابًا.

كما قال تعالى: فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ [الغاشية: 21-26].

سورةُ الرَّعدِ

الآيات (41-43)

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (41) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (42) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (42)

غريب الكلمات:

أَطْرَافِهَا: أي: جَوانِبِها ونَواحيها، وأصلُ (طرف): يدُلُّ على حَدِّ الشَّيءِ وحَرْفِه.

لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ: أي: لا رادَّ لحكمِه، ولا يتعَقَّبُه أحَدٌ بتغييرٍ ولا نَقضٍ، والمُعَقِّبُ: الذي يَتْبَعُ الشَّيءَ فيَستَدرِكُه، وأصلُ (عقب): يدلُّ على تأخيرِ شَيءٍ، وإتيانِه بعد غَيرِه.

تفسير الآيات:

أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (41).

أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا.

أي: أَوَلم يَنظُرِ الكُفَّارُ أنَّا ننصُرُ المُسلِمينَ، ونفتَحُ لهم ديارَ المُشرِكينَ أرضًا بعدَ أرضٍ، فنَنقُصُ دارَ الكُفَّارِ، ونَزيدُ في دارِ الإسلامِ؟[54] أفلا يعتَبِرونَ بذلك فيخافونَ ظُهورَهم على أرضِهم، وقَهرِهم إيَّاهم؟[55]

---

(54) اختُلِف في معنى إنقاص الأرض مِن أطرافها المذكور في الآية على أقوال: الأول: ما ينقص من أرض المشركين بفتح رسول الله – ﷺ – والمسلمين له وغَلَبَتِهم عليه.

الثاني: بخرابها بعد العمارة.

الثالث: ننقص من بركتها وثمرتها.

الرابع: موت أهلها.

الخامس: موت فقهائها وخيارها.

وبيَّن ابنُ عطية (٥/ ٢١٥) أنّ الأرض على القول الثاني مراد بها اسم الجنس، وأنها على القول الأول يراد بها أرض الكفار المذكورين في الآيات.

وبيَّن أنّ القول الأول لا يتأتى القول به إلا بأن يقدر نزول هذه الآية بالمدينة.

ورجَّح ابنُ جرير (١٣/ ٥٧٩) مستندًا إلى السياق (١٣/ ٥٧٩) وابنُ عطية (٥/ ٢١٥)، وابنُ كثير (٨/ ١٧٠) مستندًا إلى النظائر القولَ الأول، وهو قول ابن عباس من طريقي عكرمة والعوفي، وقول الضحاك، والحسن، وعطية العوفي، والسدي، ومقاتل بن سليمان، وعلَّل ذلك بقوله، فقال: «وذلك أنّ الله تَوَعَّد الذين سألوا رسولَه الآياتِ مِن مشركي قومه بقوله: ﴿وإنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أو نتوفينك﴾، ثم وبَّخهم –تعالى ذِكْرُه– بسوء اعتبارهم ما يعاينون من فعل الله بضربائهم من الكفار، وهم مع ذلك يسألون الآيات، فقال: ﴿أو لم يروا أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ بقهر أهلها، والغلبة عليها من أطرافها وجوانبها، وهم لا يعتبرون بما يرون من ذلك».

وقال ابنُ عطية (٥/ ٢١٥) بعد بيانه أنّ كل ما ذكر مِن الأقوال يدخل في لفظ الآية: «وأليق ما يقصد لفظ الآية هو تنقص الأرض بالفتوح على محمد».

وقال ابنُ كثير (٨/ ١٧٠): «والقول الأول أولى، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، كقوله تعالى: ﴿ولَقَدْ أهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ القُرى﴾ [الأحقاف: ٢٧] الآية».

(55) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (579/13)، ((معاني القرآن)) للزجاج (151/3)، ((تفسير البغوي)) (27/3، 28)، ((تفسير الزمخشري)) (534/2، 535)، ((تفسير ابن كثير)) (472/4، 473)، ((تفسير الشوكاني)) (108/3).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكور: ابنُ جرير، والزجَّاج، والزمخشري، وابنُ كثير، ونسبه البغويُّ إلى أكثرِ المفسِّرين.

يُنظر: المصادر السابقة.

كما قال تعالى: أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ [الأنبياء: 44].

ومِمن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، والضحَّاكُ، والحسنُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (574/13)، ((تفسير ابن الجوزي)) (501/2).

قال ابنُ عطية: (وهذا...

القَولُ لا يتأتَّى إلَّا بأن نقَدِّرَ نزولَ هذه الآيةِ بالمدينة، ومن قال: إنَّ الأرضَ اسمُ جِنسٍ جعَلَ الانتقاصَ مِن الأطرافِ بتخريبِ العُمرانِ الذي يُحِلُّه اللهُ بالكفرة- هذا قولُ ابنِ عباسٍ أيضًا ومجاهدٍ).

((تفسير ابن عطية)) (319/3).

وقال ابن عاشور: (الرؤيةُ يجوزُ أن تكونَ بصرية.

والمرادُ: رؤيةُ آثارِ ذلك النقصِ، ويجوزُ أن تكونَ علميةً، أي: ألم يعملوا ما حلَّ بأرضي الأممِ السابقةِ مِن نقصٍ.

وتعريفُ الأرضِ تعريفُ الجنسِ، أي: نأتي أيةَ أرضٍ مِن أرضي الأممِ...

وذهَب كثيرٌ مِن المفَسِّرينَ إلى أنَّ المرادَ بالأرضِ أرضُ الكافرين مِن قُريشٍ، فيكونُ التَّعريفُ للعهد، وتكونُ الرؤية بصريةً، ويكونُ ذلك إيقاظًا لهم لِما غلَب عليه المسلمون مِن أرضِ العدُوِّ فخرَجت مِن سلطانِه، فتنقُص الأرضُ التي كانت في تصرُّفِهم، وتزيدُ الأرضُ الخاضعةُ لأهلِ الإسلامِ.

وبنوا على ذلك أنَّ هذه الآيةَ نزلت بالمدينة، وهو الذي حمَل فريقًا على القولِ بأنَّ سورة الرعد مدنيَّة، فإذا اعتُبِرت مدنيَّةً صحَّ أنْ تفسَّرَ الأطرافُ بطرفينِ، وهما مكةُ والمدينةُ؛ فإنَّهما طرفا بلادِ العربِ، فمكَّةُ طَرَفُها مِن جهةِ اليمنِ، والمدينةُ طرَفُ البلادِ مِن جهةِ الشامِ، ولم يزَلْ عددُ الكفَّار في البلدينِ في انتقاصٍ بإسلامِ كُفَّارِها، إلى أن تمحَّضَت المدينةُ للإسلامِ، ثم تمحَّضت مكَّةُ له بعدَ يومِ الفتح).

((تفسير ابن عاشور)) (171/13-172).

وقال ابن كثير: (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا [الأنبياء: 44] اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ...

وَأَحْسَنُ مَا فُسِّرَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [الْأَحْقَافِ:27]).

((تفسير ابن كثير)) (345/5).

قال الشِّنقيطيُّ في تفسيرِ نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الأنبياءِ، وهي قولُه تعالى: أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ [الأنبياء: 44] : (ما ذكره ابنُ كثيرٍ صَوابٌ، واستقراءُ القُرآنِ العَظيمِ يدُلُّ عليه، وعليه فالمعنى: أفلا يرى كُفَّارُ مكَّةَ ومَن سار سَيرَهم في تكذيبِك- يا نبيَّ اللهِ- والكُفرِ بما جئتَ به: أنَّا نأتي الأرضَ ننقُصُها من أطرافِها، أي: بإهلاكِ الذين كذَّبوا الرُّسُلَ، كما أهلَكْنا قومَ صالحٍ وقومَ لوطٍ، وهم يمُرُّونَ بديارِهم، وكما أهلَكْنا قومَ هودٍ، وجعَلْنا سبأً أحاديثَ ومَزَّقْناهم كُلَّ مُمَزَّقٍ).

((أضواء البيان)) (157/4-158).

وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ.

أي: واللهُ هو الذي يقضي في خَلقِه بما يشاءُ، ويُعاقِبُ مَن يشاءُ، ولا يُبطِلُ أحدٌ حُكمَه بردٍّ أو نقضٍ أو تغييرٍ، فما حكَمَ اللهُ به مِن العِقابِ لا يُبطِلُه أحدٌ، وهو واقِعٌ ولو تأخَّرَ.

وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ.

أي: والله سريعٌ مجئُ حسابِه، ومجازاتِه لعبادِه، وهو واقعٌ لا محالةَ، لا يدفعُه دافعٌ، فلا يَسْتعجلوا بالعذابِ؛ فإنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ.

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (42).

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ.

أي: وقد مكرَ الذين مِن قَبلِ مُشرِكي العرَبِ برُسُلِهم، وكفروا بهم وكادُوا لهم، وأرادوا إخراجَهم مِن بلادِهم، فمكَرَ اللهُ بهم، وانتقم منهم، وجعَل العاقبةَ لِعبادِه المتَّقينَ.

كما قال سبُحانه: وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [النمل: 50 – 52].

وقال تعالى: وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ [إبراهيم: 46].

وقال سُبحانه: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ [الأنفال: 30].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا [نوح: 22].

قَبْلِهِمْ فَلِلّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا.

أي: فلِلَّه المكرُ كُلُّه؛ لأنَّ أسبابَ المكرِ بِيَدِه، ومكرُ الكفَّارِ مخلوقٌ لا يضُرُّ إلَّا بعد إذنِه، فكذلك هؤلاء المُشرِكونَ مِن قُريشٍ يمكُرونَ بك يا محمَّدُ، واللهُ مُنَجِّيك مِن مَكرِهم، ومُلحِقٌ ضَرَّ مَكرِهم بهم دونَك.

يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ.

أي: يعلَمُ اللهُ ما تعمَلُ كُلُّ نَفسٍ مِن خيرٍ أو شَرٍّ، وسيُجازيها على جميعِ أعمالِها؛ الظَّاهرةِ والباطنةِ، ومن ذلك عِلمُه بما يعمَلُ هؤلاء المُشرِكونَ مِن قَومِك- يا محمَّدُ- وما يَسْعَون فيه مِن المكرِ بك.

وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ.

أي: وسيَعلمُ الكُفَّارُ يومَ القيامةِ لِمن تكونُ عاقبةُ الدارِ الآخرةِ حينَ يَدْخلون النارَ، ويدخلُ المؤمنونَ الجنةَ؟

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (43).

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً.

أي: ويقولُ لك الكُفَّارُ– يا مُحَمَّدُ– تكذيبًا بنُبوَّتِك: لستَ رَسولًا مِن عندِ اللهِ!

قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ.

أي: قلْ لهم– يا مُحمَّدُ–: يكفيني اللهُ شاهِدًا عليَّ وعليكم بصِدقي وكَذِبِكم.

وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ.

أي: وأهلُ الكتابِ الذين عِندَهم عِلمُ التَّوراةِ والإنجيلِ؛ فإنَّهم يشهدونَ لي أنِّي رسولٌ مِن عندِ اللهِ، فيَشهدونَ أنَّ الأنبياءَ السَّابقينَ أتَوا بمِثلِ ما أتيتُ به؛ كالأمرِ بعبادةِ اللهِ وَحدَه، والنَّهيِ عن الشِّرك، والإخبارِ بيومِ القيامةِ والشَّرائعِ الكُلِّية، ويشهدونَ أيضًا بما وردَ في كتُبِهم مِن ذِكرِ صِفاتي وبِشاراتِ الأنبياءِ بي.[56]

---

(56) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (13/582)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (14/192)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: 338)، ((تفسير ابن كثير)) (4/473، 474)، ((تفسير السعدي)) (ص: 420)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (2/240).

قال الرسعني: (قال جمهورُ المفسِّرين: الذي عندَه علمُ الكتابِ؛ عبدُ اللهِ بنُ سلَامٍ).
((تفسير الرسعني)) (3/501).

ومن قال به من السلفِ: الحسنُ، ومجاهدٌ، وعِكرمةُ، وابنُ زيدٍ، وابنُ السائبِ، ومُقاتلٌ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (384/2)، ((تفسير ابن الجوزي)) (502/2).

لكن قال ابنُ كثيرٍ: (وهذا القولُ غريبٌ؛ لأنَّ هذه الآيةَ مكِّيَّةٌ، وعبدَ اللهِ بنَ سلامٍ إنَّما أسلَم في أوَّلِ مقدَمِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المدينةَ.

والأظهرُ في هذا ما قاله العوفيُّ، عن ابنِ عبَّاسٍ قال: هم مِنَ اليهودِ والنَّصارى...

وكان سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ ينكرُ أنْ يكونَ المرادُ بها عبدَ اللهِ ابنَ سلامٍ، ويقولُ: هي مكِّيَّةٌ).

((تفسير ابن كثير)) (473/4).

وقال ابنُ عاشور: (ويحتملُ أن يكونَ المرادُ بـ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ معيَّنًا، فهو ورقةُ ابنُ نوفل إذ علِم أهلُ مكةَ أنَّه شهِد بأنَّ ما أُوحي به إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم هو الناموسُ الذي أُنزل على موسَى عليه السلامُ، كما في حديثِ بدءِ الوحيِ في الصحيح.

وكان ورقةُ منفردًا بمعرفةِ التوراةِ والإنجيلِ).

((تفسير ابن عاشور)) (176/13).

وقيل: المرادُ بـ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ: الله عزَّ وجلَّ.

وهو قولُ الحسَنِ، وسعيدِ بنِ جُبير، والزجَّاج، والبقاعي.

يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (151/3)، ((تفسير الرازي)) (55/19)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (368/10).

وقيل: المعنَى مَن عندَه علمُ القرآنِ، وهم الراسخونَ في العلمِ، المدركونَ بلاغةَ القرآنِ وفصاحتَه وافتنانَ أساليبِ خطابِه.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (536/2)، ((تفسير الرازي)) (55/19)، ((تفسير الرسعني)) (502/3).

انتقد ابنُ تيمية (٤/ ٩٨ – ٩٩ بتصرف) القول بأنّ ﴿من عنده علم الكتاب﴾ المراد به علي بن أبي طالب مستندًا إلى عدم الصحة، ومخالفة الجمهور، والدلالة العقلية، بما مفاده الآتي: الأول: عدم ثبوته.

الثاني: أنّه بتقدير ثبوته ليس بحجة مع مخالفة الجمهور له.

الثالث: بطلانه قطعًا؛ لأنّه لو أُريد بالآية عليًّا لما كان لشهادته نفع للنبي، ولا يكون ذلك حُجَّةً له على الناس؛ لأنهم يقولون: مِن أين لعليّ ذلك؟ وإنما هو استفاد ذلك من محمد، فيكون محمد هو الشاهد لنفسه.

ومنها أن يقال: إنّ هذا ابن عمه ومن أول مَن آمن به، فيظن به المحاباة، والشاهد إن لم يكن عالمًا بما يشهد به، بريئًا من التهمة، لم يحكم بشهادته، ولم يكن حجة على المشهود عليه، فكيف إذا لم يكن له علم بها إلا من المشهود له؟!.

وظاهر كلام ابن تيمية ترجيحُه أنّ المراد بمن عنده علم الكتاب: أهل الكتاب، استنادًا للدلالة العقلية، والنظائر، فقال: «وأما أهل الكتاب فإذا شهدوا بما تواتر عندهم عن الأنبياء وبما علم صدقه كانت تلك شهادةً نافعة، كما لو كان الأنبياء موجودين وشهدوا له؛ لأنّ ما ثبت نقله عنهم بالتواتر وغيره كان بمنزلة شهادتهم أنفسهم.

ولهذا نحن نشهد على الأمم بما علمناه من جهة نبينا، كما قال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ [البقرة: ١٤٣]، ...

كما قال تعالى: أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ [الشعراء: 197].

وقال سُبحانه: فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ [يونس: 94].

وقال عزَّ وجلَّ:... وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ [الأعراف: 156– 157].

والله؟ قد ذكر الاستشهاد بأهل الكتاب في غير آية، كقوله تعالى: ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به﴾ [فصلت: ٥٢]، ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾ [الأحقاف: ١٠] أفترى عليًّا هو مِن بني إسرائيل؟ وقال تعالى: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾ [يونس: ٩٤]، فهل كان علي من الذين يقرءون الكتاب من قبله؟ وقال: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم﴾ [يوسف: ١٠٩]، ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ [النحل: ٤٣] فهل أهل الذكر الذين يسألونهم هل أرسل الله إليهم رجالًا هم علي بن أبي طالب؟!».

تَفْسِيرُ
سُورَةِ إبراهيمَ

سُورةُ إبراهيمَ

سورةُ إبراهيمَ

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسورةِ (إبراهيم).[57]

سورةُ إبراهيمَ مكِّيَّةٌ، وحُكِيِ الإجماعُ على كونِها مكيةً إلا آيةً منها، وقِيل: إلا آيتينِ.[58]

---

(57) سُمِّيَتِ السُّورةُ بذلك؛ لِتَضمُّنِها قِصَّةَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وما كان مِن إسكانِه ولَدَهُ إسماعيلَ بوادٍ غيرِ ذي زرْعٍ، وشُكْرِه للهِ تعالى على ما أنعَمَ عليه مِنَ الولدَين: إسماعيلَ وإسحاقَ.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (268/1).

قال ابنُ عاشورٍ: (ووَجهُ تَسْميَتِها بهذا- وإنْ كان ذِكْرُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ جرى في كَثيرٍ مِنَ السُّورِ- أنَّها مِنَ السُّورِ ذَواتِ «الر»، وقد مُيِّزَ بَعضُها عن بَعضٍ بالإضافةِ إلى أسماءِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ الَّتي جاءت قِصَصُهم فيها، أو إلى مَكانِ بَعثةِ بَعضِهم، وهي سُورةُ «الحِجْرِ»؛ ولذلك لم تُضَفْ سُورةُ الرَّعدِ إلى مِثْلِ ذلك؛ لأنَّها مُتميِّزةٌ بفاتِحتِها بزيادةِ حَرْفِ مِيمٍ على ألْفٍ ولامٍ وراءٍ).

((تفسير ابن عاشور)) (177/13).

وقد جاءتْ بَعضُ الآثارِ عنِ السَّلفِ فيها تَسميةُ هذه السُّورةِ بسُورةِ إبراهيمَ.

يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (3/5).

(58) قال ابنُ الجوزي: (سورة إبراهيم وهي مكيَّةٌ مِن غيرِ خلافٍ عَلِمناه بينهم، إلَّا ما رُوي عن ابن عباس، وقتادة أنَّهما قالا: سوى آيتينِ منها، وهما قولُه: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ [إبراهيم: 28] والتي بعدها).

((تفسير ابن الجوزي)) (503/2).

وقال الفيروزابادي: (السورة مكيةٌ إجماعًا، غيرَ آيةٍ واحدة: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ [إبراهيم: 28]).

((بصائر ذوي التمييز)) (268/1).

مِن أهمِّ مقاصدِ هذه السورةِ:

– التذكيرُ بنِعَمِ اللهِ على الناسِ، وتحريضُهم على شُكرِها، وتحذيرُهم مِن جُحودِها وكفرِها.

من أهمِّ الموضوعاتِ التي تناولَتْها هذه السُّورةُ:

1– ذِكرُ القُرآنِ الكريمِ، وأنَّه كِتابُ هدايةٍ وبَيانٍ، وذِكرُ مُلْكِ اللهِ سُبحانه للسَّمواتِ والأرضِ، وأنَّه أرسَلَ الرُّسُلَ بِلِسانِ قَومِهم؛ لِيُبَيِّنوا لهم مُرادَ اللهِ سُبحانَه.

2– ذِكرُ قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ، ونِعمةِ اللهِ على قَومِه إذ أنجاهم مِن آلِ فِرعونَ، وذِكرُ أخبارِ بعضِ الأنبياءِ مع أقوامِهم، ونماذجَ مِن المحاوراتِ التي دارتْ بينَ الرسلِ وبينَ مَن أُرسِلوا إليهم، وجزاءِ اللهِ تعالى للظَّالمينَ المكَذّبين.

3– المحاجَّةُ بين أهلِ النَّارِ الضُّعَفاءِ والذين استكبَروا، ومجادلةُ الشَّيطانِ لهم في النَّارِ، ثمَّ ذِكرُ حالِ أهلِ الجنَّةِ وما لهم من النَّعيمِ المُقيم، ثم ذِكرُ مثَلٍ لكلمتَيِ الإيمانِ والكفرِ، ثمَّ ذِكْرُ حالِ الكُفَّارِ؛ فقد بدَّلوا نِعمةَ اللهِ كُفرًا، وأحَلُّوا قومَهم دارَ البَوارِ، وذِكرُ المؤمنينَ الذين لم يُبَدِّلوا نعمةَ اللهِ كُفرًا، وأقاموا الصَّلاةَ، وأنفَقوا ممَّا رزقهم اللهُ سرًّا وعلانيَةً.

4– ذِكرُ بعض نِعَمِ الله تعالى على خَلقِه.

5– خبرُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ وعبادتِه للهِ سبحانِه وتَركِه لعبادةِ الأصنامِ، ودَعوتِه لذُرِّيَّتِه بسَعةِ الرِّزقِ، وتَضَرُّعِه إلى اللهِ سبحانه، ثمَّ بيَّنَ مُهمَّةَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهي النِّذارةُ بيومِ القيامةِ.

6- وخُتِمت الســـورةُ بآياتٍ فيها مِن التحذيرِ والوعيدِ، وذِكرِ أنواعٍ مِن العذابِ مما أعدَّه للظالمين، وذَكَر سُبحانَه أنَّه في يومِ القِيامةِ يكونُ الجزاءُ، فتُجزَى فيه كلُّ نفسٍ بما كسَبَت، فهو سريعُ الحِسابِ.

سورةُ إبراهيمَ

الآيات (1-3)

الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ
الْحَمِيدِ (1) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ
(2) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا
أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (3)

تفسير الآيات:

الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1).

الَر.

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحروفِ المقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ البَقَرةِ.

كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ.

أي: هذا القُرآنُ كتابٌ عظيمٌ أنزَلْناه إليك- يا مُحمَّدُ- لتُخرِجَ به النَّاسَ- عرَبَهم وعَجَمَهم- مِن ظُلماتِ الكُفرِ والجَهلِ والمعاصي إلى نورِ الإيمانِ والعِلمِ والطَّاعةِ، وذلك بإرادةِ اللهِ تعالى وتوفيقِه لهم؛ فهو الهادي لِمَن قدَّرَ له الهدايةَ على يَدَي رسولِه المبعوثِ عن أمرِه سُبحانَه.

كما قال تعالى: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ [البقرة: 257].

وقال سُبحانه: هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ [الحديد: 9].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ [النساء: 64].

وقال تعالى: وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ [يونس: 100].

إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ.

أي: لتُخرِجَ النَّاسَ مِن الظُّلماتِ إلى النُّورِ الذي هو طريقُ الحَقّ الواضحِ المُستقيمِ الذي نصَبَه اللهُ لعبادِه، وجَعَله مُوصِلًا إلى العزيزِ الذي لا يُمانَعُ ولا يُغالَبُ، المُستحِقِّ وَحدَه لكمالِ الحَمدِ في جميعِ أقوالِه وأفعالِه، وشَرعِه وقَدَرِه.

اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (2).

اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ.

أي: أنزَلْنا إليك القُرآنَ؛ لتدعوَ النَّاسَ إلى سُلوكِ صِراطِ العزيزِ الحميدِ؛ اللهِ المُستحِقّ للعبادةِ وَحدَه، الذي مِن صِفتِه أنَّه يَملِكُ جميعَ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، والخَلقُ كُلُّهم مِلكُه وعَبيدُه.

وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ.

أي: وَهَلاكٌ وشِدَّةٌ[59] لِمَن كَفَروا باللهِ وبِرَسولِه، مِن عذابٍ شديدٍ ينالُهم في الآخرةِ.

---

(59) قال ابن عطية: (وقوله: وَوَيْلٌ معناه: وشِدَّةٌ وبَلاءٌ ونحوُه.

أي: يلقَونَه من عذابٍ شديدٍ ينالُهم اللهُ به يوم القيامة، ويحتملُ أن يريدَ في الدنيا، هذا معنى قوله: وَوَيْلٌ.

وقال بعضهم: «وَيْلٌ» اسمُ وادٍ في جهنَّم يسيلُ مِن صَديدِ أهلِ النَّارِ.

قال القاضي أبو محمد: وهذا خبرٌ يحتاجُ إلى سنَدٍ يقطَعُ العُذرَ، ثمَّ لو كان هذا لقَلِقَ تأويلُ هذه الآيةِ؛ لقوله: مِنْ عَذَابٍ، وإنما يحسُنُ تأوُّلُه في قوله تعالى: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ [المطففين: 1] وما أشبَهَه، وأمَّا هنا فإنَّما يحسُنُ في وَيْلٌ أن يكونَ مصدرًا، ورفْعُه على نحوِ رَفعِهم: سَلامٌ عليك، وشِبهِها).

((تفسير ابن عطية)) (322/3).

الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (3).

الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ.

أي: وويلٌ للكافرينَ الذين يحِبُّونَ الحياةَ الدُّنيا، ويختارونَها ويُؤْثِرونَها على الآخرةِ، فرَضُوا واطمأنُّوا بها، وغفَلوا عن الأعمالِ الصالحةِ التي تنفعُهم في الدارِ الآخرةِ.

وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا.

أي: ويَصرِفونَ النَّاسَ عن دينِ اللهِ، ويُريدونَ أن يكونَ مائِلًا عن الحقِّ المُستقيمِ، بتَحريفِه وتبديلِه وغيرِ ذلك؛ لموافقةِ أهوائِهم وقَضاءِ أغراضِهم، ومنها تنفيرُ النَّاسِ عن طريقِ الحَقِّ.(60)

وقال الشنقيطي: (كلمةُ وَيْلٌ، قال فيها بعضُ أهلِ العلم: إنَّها مصدرٌ لا فعلَ له مِن لَفظِه، ومعناه الهلاكُ الشَّديدُ، وقيل: هو وادٍ في جهنَّم تستعيذُ مِن حَرِّه، والذي سوَّغَ الابتداءَ بهذه النَّكرةِ أنَّ فيها معنى الدُّعاءِ).

((أضواء البيان)) (7/450).

ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (10/372-373)، ((تفسير ابن عاشور)) (13/183).

وفسَّره ابنُ جريرٍ بأنَّه الوادي الذي يسيلُ مِن صديدِ أهلِ جهنمَ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (13/590-591).

(60) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٢٢٠) لقوله تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ ثلاثة احتمالات مِن التأويل، استظهر أوّلها، فقال: «أظهرها أن يريد: ويطلبونها في حالة عِوج منهم، ولا يُراعى إن كانوا بزعمهم على طريق نظر وبسبيل اجتهاد واتباع الأحسن، فقد وصف الله تعالى حالهم تلك بالعوج».

ولم يذكر لذلك مستندًا، ثم وجَّهه بقوله: «كأنّه قال: ويصدون عن سبيل الله التي هي بالحقيقة نبيلة، ويطلبونها على عِوَج في النظر».

والثاني: «أن يكون المعنى: ويطلبن لها عوجًا يظهر فيها».

أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ.

أي: أولئك الكُفَّارُ- الموصوفونَ بهذه الصِّفاتِ- في ذَهابٍ بعيدٍ عن الحَقِّ.

ثم وجَّهه بقوله: «أي: يسعون على الشريعة بأقوالهم وأفعالهم، فـ ﴿عِوَجًا﴾ مفعول».

الثالث: «أن تكون اللفظة مِن البغي على معنى: ويبغون عليها، أو فيها عِوَجًا، ثم حذف الجار».

ثم انتقده قائلًا: «وفي هذا بعض القَلَق».

سورةُ إبراهيمَ

الآيات (4–8)

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (5) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7) وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (8)

غريب الكلمات:

بِأَيَّامِ اللَّهِ: أي: نَعمائِه وبَلائِه، وقيل: بوقائعِه في الأُممِ.

يَسُومُونَكُمْ: أي: يُولونَكم ويَبغونَكم؛ مِن قَولِهم: سامَه: إذا كلَّفَه العمَلَ الشَّاقَّ، وأصلُ (سوم): يدلُّ على الذَّهابِ في ابتغاءِ الشَّيءِ.

وَيَسْتَحْيُونَ: أي: يَستبقُونَهنَّ أحياءً، وأصلُ (حيي): يدُلُّ على خِلافِ الموتِ.

تَأَذَّنَ: أي: أعلَمَ. وهو من آذنتُك بالأمرِ: أي أعلمْتُك، وأصلُ (أذن): يدُلُّ على العِلمِ.

تفسير الآيات:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4).

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ.

أي: وما أرسَلْنا رسُولًا إلى أمَّةٍ مِن الأُمَمِ إلَّا بلُغةِ قَومِه الَّذين أرسَلْناه إليهم؛ لِيُفهِمَهم ويُوضِّحَ لهم أمرَ دينِهم.

فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ.

أي: فبعدَ البَيانِ وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم يضِلُّ اللهُ من يشاءُ إضلالَه، فيخذُلُه عن اتِّباعِ الحَقِّ، ويُوَفِّقُ مَن يشاءُ هدايتَه إلى الحَقِّ، فالتَّوفيقُ والخِذلانُ بيَدِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

أي: وهو العزيزُ الذي لا يُغلَبُ على مشيئتِه، فما شاءَ كان، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ، ومِن ذلك مشيئتُه بالإضلالِ أو الهدايةِ، وانفرادُه بهما، وهو الحكيمُ الذي يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائقِ به، ومِن حِكمتِه أنَّه لا يضَعُ هِدايتَه ولا إضلالَه إلَّا بالمَحَلِّ اللائقِ به، فيُضِلُّ من يستحِقُّ الإضلالَ، ويهدي مَن هو أهلٌ لذلك.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (5).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا.

أي: ولقد أرسَلْنا موسى بآياتِنا العظيمةِ الدَّالَّةِ على صِدقِه، وصِحَّةِ ما جاء به.(61)

أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.

أي: أمَرْنا موسى قائلينَ له: ادْعُ قومَك بني إسرائيلَ إلى طريقِ الحَقِّ؛ لِيَخرُجوا مِن ظُلماتِ الكُفرِ والجَهلِ والمعاصي إلى نورِ الإيمانِ والعِلمِ والطَّاعةِ.(62)

---

(61) قال أبو حيان: (الجمهورُ على تفسيرِ قَولِه: بِآيَاتِنَا أنَّها تسعُ الآياتِ التي أجراها اللهُ على يدِ موسى عليه السَّلام.

وقيل: يجوزُ أن يُرادَ بها آياتُ التوراةِ، والتقديرُ: كما أرسَلْناك -يا محمَّدُ- بالقرآنِ بلِسانٍ عربيٍّ، وهو آياتُنا، كذلك أرسَلْنا موسى بالتوراةِ بلِسانِ قَومِه).

((تفسير أبي حيان)) (409/6).

(62) وجَّه ابنُ عطية (٥/ ٢٢٢ – ٢٢٣) القولَ بأنّ المراد بـ ﴿من الظلمات إلى النور﴾: مِن الكفر إلى الإيمان، بقوله: «وهذا على ظاهر أمرِ بني إسرائيل في أنّهم كانوا قبل بعث موسى فيهم أشياعًا متفرقين في الدين، ففرع مع القبط في عبادة فرعون، وكلهم على غير شيءٍ»، ثم ذكر احتمالًا آخر، فقال: «وإن صحَّ أنهم كانوا على دين إبراهيم وإسرائيل أو نحو هذا فالظُّلُمات: الذل أو العبودية، والنُّور: العزة بالدين والظهور بأمر الله تبارك وتعالى».

وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ.

أي: وذَكِّرْ– يا موسى– قومَك بني إسرائيلَ بأيامِ نعمِ اللهِ وإحسانِه، وبأيَّامِ نِقَمِه وبَطشِه وانتقامِه[63] ؛ وذلك ليشكُروا اللهَ، ويحذَرُوا عذابَه.

عن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله – ﷺ – يقولُ: ((إنَّه بينما موسى عليه السَّلامُ في قَومِه يُذَكِّرُهم بأيَّامِ اللهِ– وأيَّامُ اللهِ: نَعماؤُه وبَلاؤُه– إذ قال...)) الحديث.[64]

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ.

أي: إنَّ في التَّذكيرِ بنِعَمِ اللهِ وأيَّامِه لَدَلالاتٍ وعِبرًا ومَواعِظَ لكُلِّ مَن كان عظيمَ الصَّبرِ على الطَّاعةِ، وعن المعصيةِ، وعلى البلاءِ والضَّرَّاءِ، عظيمَ الشُّكرِ لله على السَّرَّاءِ والنَّعماءِ.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6).

---

(63) قال ابنُ جريرٍ: (أيَّامٌ كانت مَعلومةً عندهم، أنعَمَ اللهُ عليهم فيها نِعمًا جَليلةً، أنقَذَهم فيها من آلِ فِرعونَ بَعدَما كانوا فيما كانوا مِنَ العذابِ المُهينِ، وغرَّقَ عَدُوَّهم فِرعونَ وقومَه، وأورَثَهم أرضَهم ودِيارَهم وأموالَهم).

((تفسير ابن جرير)) (594/13).

وقال ابنُ جزي: (وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ، أي: عُقوباتِه للأُمَمِ المُتقدِّمةِ، وقيلَ: إنْعامِه على بني إسرائيلَ، واللَّفظُ يعُمُّ النِّعمَ والنِّقَمَ).

((تفسير ابن جزي)) (408/1).

وقال السِّعدي: (بنِعَمِه عليهم وإحسانِه إليهم، وبأيَّامِه في الأُمَمِ المُكذِّبينَ، ووَقائعِه بالكافرينَ).

((تفسير السعدي)) (ص: 422).

(64) رواه مسلم (2380).

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ.

أي: واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- قولَ موسى لِقَومِه بني إسرائيلَ: اذكُروا بقُلوبِكم وألسِنتِكم إنعامَ اللهِ عليكم، حين أنجاكم مِن فِرعونَ وقَومِه.

يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ.

أي: يُذيقُكم آلُ فِرعونَ عذابًا سيِّئًا شَديدًا.

وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ.

أي: ويُذَبِّحونَ أبناءَكم الذُّكورَ المَولودين.

وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ.

أي: ويَترُكونَ إناثَكم دونَ قَتلٍ؛ مِن أجلِ جعلِهم خدمًا وأرِقَّاء.

وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ.

أي: وفي عذابِ آلِ فِرعونَ لكم اختبارٌ مِن اللهِ لكم عظيمٌ، وفي إنجائِنا لكم مِنهم نِعمةٌ مِن اللهِ عَظيمةٌ.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7).

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ.

أي: واذكُروا حين أعلَمَكم ربُّكم: لَئِن شَكَرتُم اللهَ على نِعَمِه بطاعتِه في أمرِه ونَهيِه، ليزيدَنَّكم من النِّعَمِ.

وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ.

أي: ولئنْ كَفَرتُم نعمةَ اللهِ عليكم فلم تشكُروه عليها بطاعتِه في أمرِه ونَهيِه؛ فإنَّ عِقابَه لِمَن كفَرَ به شديدٌ، فيُصيبُكم منه ما يسلُبُ تلك النِّعَمَ، ويُحِلُّ بكم النِّقَمَ.

وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (8).

أي: وقال موسى لقَومِه: إن تكفُروا بنِعَمِ اللهِ أنتم وجميعُ مَن في الأرضِ، فإنَّ اللهَ غنيٌّ عن جميعِ خَلقِه، وعن شُكرِهم له، محمودٌ قد استَوْجَب الحمدَ لِذاتِه لكثرةِ إنعامِه، وإنْ لم تَشْكُروه وهو حميدٌ في ذاتِه وأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه.

كما قال تعالى: إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ [الزمر: 7].

وقال سُبحانه: فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ [التغابن: 6].

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ – ﷺ – فيما روى عن اللهِ تبارك وتعالى أنَّه قال: ((يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلَّا مَن هَدَيتُه، فاستهدُوني أهْدِكم، يا عبادي كُلُّكم جائعٌ إلَّا مَن أطعَمتُه، فاستطعِموني أُطعِمْكم، يا عبادي كلُّكم عارٍ إلَّا مَن كسَوتُه، فاسْتَكْسُوني أكْسُكم، يا عبادي إنَّكم تُخطِئونَ باللَّيلِ والنَّهارِ، وأنا أغفِرُ الذُّنوبَ جميعًا، فاستغفِروني أغفِرْ لكم، يا عبادي إنَّكم لن تبلُغوا ضُرِّي فتضُرُّوني، ولن تبلُغوا نفعي فتنفَعوني، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخرِكَم، وإنسَكم وجِنَّكم، كانوا على أتقى قلبِ رَجُلٍ واحدٍ منكم؛ ما زاد ذلك في مُلكي شيئًا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، كانوا على أفجَرِ قَلبِ رجلٍ واحدٍ؛ ما نقص ذلك مِن مُلكي شيئًا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ، فسألوني فأعطيتُ كُلَّ إنسانٍ مَسألتَه، ما نقَصَ ذلك مِمَّا عندي إلَّا كما يَنقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البحرَ)).(65)

(65) رواه مسلم (2577).

سورةُ إبراهيمَ

الآيات (9–12)

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ
جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي
شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا
تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (10) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ
نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا
سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12)

غريب الكلمات:

مُرِيبٍ: أي: مُوقِعٍ للتُّهمةِ، والرِّيبةُ: التهمةُ، وهي ظنُّ السوءِ، فهي قسمٌ مِن الشكِّ، والريبةُ: قَلَقُ النَّفسِ، وانتفاءُ الطُّمأْنينةِ، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ.

فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ: أي: خالِقِهما ومُبدِعِهما ومُبتدئِهما، وأصلُ (فطر): الشَّقُّ طولًا، ويدلُّ على فتْحِ شيءٍ، وإبرازِه.

تفسير الآيات:

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9).

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ.

أي: ألم يأتِكم خَبَرُ الأُمَمِ الذين مَضَوا مِن قَبلِكم؛ قَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ؟[66]

وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ.

أي: وأمَمٌ كثيرةٌ مِن بعدِ قَومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ، لا يعلَمُ عدَدَهم وأخبارَهم إلَّا اللهُ وَحدَه.

(66) قيل: هذا من تمامِ قولِ موسى لقومِه، وممن قال بذلك: ابنُ جرير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (13/603).

وقيل: هو خبرٌ مُستأنَفٌ مِن الله تعالى لهذه الأمَّة، وممن قال بذلك: ابنُ كثير، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (4/480-481)، ((تفسير ابن عاشور)) (13/195).

وقال الشوكاني: (يحتمِلُ أن يكون هذا خطابًا مِن موسَى لقومِه، فيكون داخلًا تحتَ التذكيرِ بأيامِ الله، ويحتملُ أن يكونَ مِن كلامِ الله سبحانَه ابتداءً خطابًا لقومِ موسى، وتذكيرًا لهم بالقرونِ الأُولَى وأخبارِهم ومجيءِ رسُلِ الله إليهم، ويحتمِلُ أنَّه ابتداءُ خِطابٍ مِن الله سبحانه لقومِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلم؛ تحذيرًا لهم عن مخالفتِه).

((تفسير الشوكاني)) (3/115).

كما قال تعالى: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا [الإسراء: 17].

وقال سُبحانه: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا * وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا [الفرقان: 35 – 38].

جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ.

أي: جاء كُلَّ أمَّةٍ مِن الأمَمِ السَّابقةِ رَسولُهم الذي أرسَلَه اللهُ إليهم، بالحُجَجِ الواضِحةِ الدَّامغةِ، والمُعجِزاتِ الظَّاهِرةِ الدَّالَّةِ على صِدقِ الرُّسُلِ، وصِحَّةِ دعوتِهم النَّاسَ إلى توحيدِ الله وطاعتِه.

فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ.

أي: فرَدَّ المكَذِّبونَ مِن الأُمَمِ السَّابقةِ أيديَهم إلى أفواهِهم؛ ليَعَضُّوها غيظًا ممَّا جاءت به الرسُلُ مِن توحيدِ اللهِ، الذي فيه تسفيهُ أحلامِهم، وإبطالُ آلهتِهم.(67)

---

(67) وممَّن اختار هذا المعنى المذكورَ: ابنُ قتيبةَ، وابنُ جريرٍ، والنَّحَّاس، والقرطبي.
يُنظر: المصادر السابقة.
وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ، وابنُ زيد.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (605/13)، ((تفسير ابن الجوزي)) (505/2).

كما قال تعالى: وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [آل عمران: 119].

وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ.

وقال الشوكاني: (فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ أي: جعلوا أيديَ أنفُسِهم في أفواهِهم؛ ليعَضُّوها غيظًا ممَّا جاءت به الرسل، كما في قوله تعالى: عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ؛ لأنَّ الرُّسل جاءتهم بتسفيهِ أحلامِهم وشَتمِ أصنامِهم...

وقال أبو عبيدةَ- ونِعمَ ما قال-: هو ضَربُ مَثَلٍ، أي: لم يؤمنوا ولم يُجيبوا، والعربُ تقول للرجلِ إذا أمسك عن الجوابِ وسكت: قد ردَّ يدَه في فيه، وهكذا قال الأخفش، واعترَض ذلك القتبيُّ، فقال: لم يُسمَعْ أحدٌ من العرب يقولُ: ردَّ يدَه في فيه: إذ ترك ما أُمِرَ به، وإنما المعنى: عَضُّوا على الأيدي حنَقًا وغيظًا...

وهذا هو القولُ الذي قدَّمناه على جميع هذه الأقوال...

وهو أقربُ التفاسيرِ للآية إن لم يصِحَّ عن العربِ ما ذكره أبو عبيدةَ والأخفش، فإن صَحَّ ما ذَكَراه فتفسيرُ الآية به أقربُ).

((تفسير الشوكاني)) (116/3).

ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (336/1)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: 230).

وعن ابن عباس رَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ: (هَذَا مَثَلٌ، كَفُّوا عَمَّا أُمِرُوا بِهِ).

علَّقه البخاريُّ في ((صحيحه)) (99/6).

وممن اختار قولَ أبي عبيدةَ: البقاعي، والسعدي.

يُنظر: ((نظم الدرر)) (390/10)، ((تفسير السعدي)) (ص: 422).

واختار ابنُ عاشور أنَّ المراد: أنَّهم وضعوا أيديَهم على أفواهِهم؛ إخفاءً لشِدَّةِ الضَّحِك من كلامِ الرُّسُل؛ كراهيةَ أن تظهَرَ دواخِلُ أفواهِهم.

وذلك تمثيلٌ لحالة الاستهزاءِ بالرسُلِ- عليهم السلام.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (196/13).

وفي الآيةِ الكريمةِ أقوالٌ؛ مِنها: أنَّهم لَمَّا سَمِعوا كِتابَ اللهِ، عَجِبوا ورَجَعوا بأيدِيهم إلى أفواهِهم مِنَ العجَبِ.

ويُرْوَى عنِ ابنِ عبَّاسٍ.

ومِنها: أنَّهم كانوا إذا قال لهم نَبِيُّهم: أنا رسولُ اللهِ إليكم، أشاروا بأصابِعِهم إلى أفواهِهم أنِ اسْكُتْ؛ تكذيبًا له، وردًّا لقولِه.

ويُرْوَى هذا عن أبي صالحٍ.

ومِنها: أنَّهم وَضَعوا أيدِيَهم على أفواهِ الرُّسلِ؛ ردًّا لِقَولِهم، قالَهُ الحسنُ.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (506/2)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (242/2).

أي: وقالوا لرُسُلِهم: إنَّا كَفَرْنا بالذي تزعُمونَ أنَّكم أُرسِلتُم به، مِن الدُّعاءِ إلى توحيدِ اللهِ، وتَركِ الإشراكِ به.

وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ.

أي: وإنَّا لفي شَكٍّ يوجِبُ لنا التُّهمةَ والرِّيبةَ مِن حقيقةِ ما جِئتُمونا به؛ فلَسْنا نصَدِّقُكم فيه.

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (10).

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ.

أي: قالت الرُّسُلُ لأُمَمِهم: أفي وجودِ اللهِ وإفرادِه بالعبادةِ دُونَ غيرِه شَكٌّ؟![68]

---

(68) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (13/609)، ((تفسير القرطبي)) (9/346)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (16/339)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (1/82، 83)، ((تفسير السعدي)) (ص: 422).

قال ابن كثير: (هذا يحتمِلُ شيئين: أحدُهما: أفي وجودِه شَكٌّ؟! فإنَّ الفِطَرَ شاهدةٌ بوجوده، ومجبولةٌ على الإقرار به، فإنَّ الاعتراف به ضروريٌّ في الفِطَر السليمة.

والمعنى الثاني في قولهم: أَفِي اللَّهِ شَكٌّ أي: أفي إلهيَّته، وتفرُّدِه بوجوب العبادة له شكٌّ؟! وهو الخالِقُ لجميع الموجودات، ولا يستحِقُّ العبادةَ إلَّا هو وَحدَه لا شريك له؛ فإنَّ غالبَ الأمَمِ كانت مقِرَّةً بالصانع، ولكن تعبُدُ معه غيرَه من الوسائط التي يظنُّونها تنفَعُهم أو تقرِّبُهم مِن الله زلفى).

((تفسير ابن كثير)) (4/482).

فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: خالقِ السَّمواتِ والأرضِ، ومُوجِدِهما مِن العدَمِ على غيرِ مِثالٍ سابقٍ.

يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ.

أي: يَدعوكم اللهُ على ألسنةِ رُسُلِه وفي كُتُبِه إلى عبادتِه وَحدَه وطاعتِه؛ لِيستُرَ عليكم بعضَ(69) ذُنوبِكم، ويتجاوزَ عن مؤاخَذتِكم بها، فلا يعاقِبَكم عليها.

---

(69) قال القرطبيُّ: (قال أبو عُبيدٍ: «مِن» زائدةٌ.
وقال سِيبويْه: هي للتَّبعيضِ، ويجوزُ أنْ يُذكَرَ البَعضُ والمُرادُ منه الجميعُ.
وقِيلَ: «مِن» للبدَلِ، وليستْ بزائدةٍ ولا مُبعِّضَةٍ، أي: لِتَكونَ المَغفِرةُ بدلًا مِنَ الذُّنوبِ).
((تفسير القرطبي)) (9/346-347).
وممَّن ذهب إلى كونِ «مِن» بمعنى التبعيضِ: ابنُ جريرٍ، والزمخشري، وابنُ عطية.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (13/610)، ((تفسير الزمخشري)) (2/543)، ((تفسير ابن عطية)) (3/328).
قال ابنُ عطية: (وهو معنى صحيحٌ؛ وذلك أنَّ الوعدَ وقَع بغُفران الشركِ وما معه مِن المعاصي، وبقِيَ ما يستأنفُه أحدُهم بعدَ إيمانه مِن المعاصي مسكوتًا عنه؛ ليبقَى معه في مشيئةِ الله تعالى، فالغفرانُ إنما نفَذ به الوعدُ في البعضِ، فصَحَّ معنى مِنْ).
((تفسير ابن عطية)) (3/328).
وقال زينُ الدِّين الرازيُّ: (فإنْ قِيلَ: ما معنَى التَّبعيضِ في قوله تعالى: لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ؟ قُلْنا: ما جاء هكذا إلَّا في خِطابِ الكافرينَ؛ كقولِه تعالى في سُــورةِ نُوحٍ: يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ [نوح: 4] ، وقولِه تعالى في سُـــورةِ الأحقافِ: يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ [الأحقاف: 31] ، وقال تعالى في خِطابِ المُؤمنينَ في سُورةِ الصَّفّ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ إلى قولِه: يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ [الصف: 10-12] ، وقال في آخرِ سُورةِ الأحزابِ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَـدِيدًا * يُصْـلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ [الأحزاب: 70-71] ، وكذا باقي الآياتِ في خِطابِ الفريقينِ إذا تتَبَّعْتَها، وما ذلك إلَّا للتَّفرقةِ بيْن الخِطابينِ؛ لئلَّا يُسَوَّى بيْن الفريقينِ في الوعْدِ، مع اختلافِ رُتْبَتِهما، لا لأنَّه يَغفِرُ للكُفَّارِ مع بَقائِهم على الكُفْرِ بَعضَ ذُنوبِهم.
والَّذي يُؤيِّدُ ما ذَكَرناهُ مِنَ العِلَّةِ: أنَّه في سُورةِ نُوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وفي سُورةِ الأحقافِ وعَدَهُم مَغفِرةَ بَعضِ الذُّنوبِ بشَرطِ الإيمانِ، لا مُطْلَقًا.

وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى.

أي: ويؤخّرَكم في الدُّنيا إلى مُنتهَى أعمارِكم، فلا يُعاجِلكم بالعذابِ.

كما قال تعالى: وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ [هود: 3].

قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا.

أي: قال الكُفَّارُ لرُسُلِهم: ما أنتم إلَّا بشَرٌ مِثلُنا في الصُّورةِ والهيئةِ؛ تأكلونَ ممَّا نأكُلُ، وتشربونَ ممَّا نشرَبُ، ولستُم ملائكةً، فكيف نُطيعُكم؟ وكيف تفضُلُوننا بالنبوَّةِ والرِّسالةِ؟! إنَّما تريدونَ بدَعوتِكم هذه أن تَصرِفونا عن عبادةِ ما كان يعبُدُ آباؤُنا مِن الأوثانِ والأصنامِ.

فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ.

أي: فأْتُونا بمُعجزةٍ ظاهرةٍ، وحُجَّةٍ دامغةٍ تُبَيِّنُ لنا صِحَّةَ ما تدعونَنا إليه، فنعلَمَ أنَّكم على الحَقِّ.

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11).

وقِيلَ: معنَى التَّبعيضِ: أنَّه يَغفِرُ لهم ما بيْنهم وبيْنه، لا ما بيْنهم وبيْن العِبادِ مِنَ المَظالِمِ ونَحوِها).
((أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل)) (ص: 233–234).
ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (3/194).

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ.

أي: قالت الرُّسُلُ لأولئك الكفَّارِ مِن أقوامِهم: صدَقْتُم، ما نحنُ إلَّا بشَرٌ مِن بني آدَمَ، مِثلُكم في البشَريَّة.

وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.

أي: ولكنَّ اللهَ يتفضَّلُ على من يشاءُ مِن عبادِه بالرِّسالةِ والنُّبُوَّة، ويُفَضِّلُهم على كثيرٍ مِن خَلْقِه.

وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ.

أي: ولا نقدِرُ أن نأتيَكم بحُجَّةٍ وآيةٍ كما تقترِحونَ، إلَّا بمشيئةِ اللهِ وأمرِه.

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ.

أي: وعلى اللهِ وَحدَه فلْيعتمِدِ المؤمنونَ في جَلبِ مَصالِحِهم، ودفْعِ مَضارِّهم، ولْيَثِقوا به في تيسيرِ جميعِ أمورِهم.

وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آَذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12).

وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا.

أي: قالت الرُّسلُ لأُمَمِهم: وأيُّ عذرٍ لنا في ألَّا نعتَمِدَ على اللهِ ونَثِقَ به، والحالُ أنَّه قد فعل بنا ما يوجِبُ توكُّلَنا عليه؛ فقد أرشَدَنا ووفَّقَنا لسُلوكِ الطَّريقِ المُوصِلِ إلى رَحمتِه، المُنَجِّي مِن سَخَطِه ونِقمَتِه؟

وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آَذَيْتُمُونَا.

أي: واللهِ، لنَصبِرَنَّ على ما نَلقَى منكم مِن الأذَى بسبَبِ استمرارِنا في الدَّعوةِ إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه لا شريكَ له.

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ.

أي: وعلى اللهِ وَحدَه فلْيَعتمِدِ المتوَكِّلونَ الواثِقونَ باللهِ، ولْيَثبُتوا على توكُّلِهم على اللهِ عزَّ وجلَّ.

سورةُ إبراهيمَ

الآيات (13–18)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (14) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (16) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (17) مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (18)

غريب الكلمات:

مِلَّتَنَا: أي: دينِنا، وطريقتِنا، وإنَّما سُمِّيَ الدِّينُ مِلَّةً؛ لأنَّه يُمَلُّ، أي: يُملَى على المَدعُوِّ إليه، فالملةُ تُبنَى على مَسموعٍ ومتلوٍّ.

وَاسْتَفْتَحُوا: أي: استَنصَروا وسألوا الفتحَ من اللهِ- وهو القَضاءُ، وأصلُ (فتح): يدلُّ على خلافِ الإغلاقِ.

مِنْ وَرائِهِ: أي: مِن أمامِه، والوَراءُ: مِنَ الأضدادِ، يكونُ بمعنى خَلْف وقُدَّام.

صَدِيدٍ: قيحٍ ودَمٍ، واشتِقاقُه مِن الصَّدِّ؛ لأنَّه يصُدُّ النَّاظِرينَ عن رُؤيتِه.

يَتَجَرَّعُهُ: أي: يتحَسَّاه مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ، لا مَرَّةً واحدةً؛ لِمَرارتِه وحرارتِه، وأصلُ (جرع): يدُلُّ على قِلَّةِ الشَّيءِ المَشروبِ.

يُسِيغُهُ: أي: يُجيزُه ويَبتَلِعُه، وأصلُ (سوغ): يدُلُّ على سُهولةِ الشَّيءِ، واستمرارِه.

عَاصِفٍ: أي: شديدِ هُبوبِ الرِّيحِ، وأصلُ (عصف): يدُلُّ على خِفَّةٍ وسُرعةٍ.

تفسير الآيات:

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13).

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا.

أي: وقال الذين كَفَروا باللهِ لرسلِ الله الذين يَدْعونهم للتوحيدِ: واللهِ، لنطرُدَنَّكم من بلادِنا إلا أن تعودوا إلى دينِنا.[70]

كما قال تعالى حاكيًا قولَ قَومِ شُعَيبٍ له ولِمَن آمن به: قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا [الأعراف: 88].

وقال سُبحانه حاكيًا قَولَ قَومِ لُوطٍ: فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ [النمل: 56].

---

(70) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (612/13)، ((تفسير القرطبي)) (348/9)، ((تفسير ابن كثير)) (483/4).
قال ابن العربي: (قال الطبري: «معناه: لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا إِلَّا أَنْ تَعُودُوا فِي مِلَّتِنَا».
وهو غيرُ مفتقرٍ إلى هذا التقدير، فإن أَوْ على بابِها من التخييرِ، خيَّر الكفارُ الرسُلَ بين أن يعودوا في مِلَّتِهم أو يُخرِجوهم من أرضِهم).
((أحكام القرآن)) (89/3).
ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (206/13).

وقال عزَّ وجلَّ مُخبِرًا عن مُشركي قُريشٍ: وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا [الإسراء: 76].

وقال تبارك وتعالى: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ [الأنفال: 30].

فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ.

أي: فأوحَى اللهُ إلى رسُلِه قائلًا لهم: لنُهلِكَنَّ المُشرِكينَ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بوَضعِهم العبادةَ في غَيرِ مَوضِعِها، وصَرفِها لِمَن لا يستحِقُّها.

وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (14).

وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ.

أي: ولننصُرَنَّكم وأتباعَكم المؤمنينَ على الكفَّارِ، ونجعَلُكم تسكُنونَ أرضَهم مِن بعدِ إهلاكِنا لهم.

كما قال تعالى: قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ [الأعراف: 128- 129].

وقال سُبحانه: وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ [الأعراف: 137].

لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ.

أي: ذلك النَّصرُ في الدُّنيا على الكُفَّارِ، والتَّمكينُ في الأرضِ، يتحَقَّقُ لِمَن خاف مَقامَه بينَ يدَيَّ يومَ القيامةِ، وخاف مِن وعيدي وعذابي، فاتَّقاني بطاعتي، وتجنُّبِ مَعصِيتي.(71)

وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15).

وَاسْتَفْتَحُوا.

أي: طلبَت الرسُلُ مِن اللهِ النَّصرَ على أقوامِهم وإهلاكَهم.(72)

---

(71) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (613/13)، ((تفسير القرطبي)) (348/9)، ((تفسير ابن كثير)) (484/4).

قال السمعاني في قولِه تعالى: خَافَ مَقَامِي: (أجمَع أهلُ التَّفسيرِ أنَّ معناه: ذلك لمن خَافَ مقامَه بينَ يَدَيَّ).

((تفسير السمعاني)) (108/3).

وقال الشــوكاني: (وقيل: إنَّ المقامَ هنا مصــدرٌ بمعنَى القيامِ، أي: لِمَنْ خافَ قيامي عليه، ومُراقبتي له، كقولِه تعالى: أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ [الرعد: 33]

وقال الأخفشُ: ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي، أي: عذابي).

((تفسير الشوكاني)) (119/3)، وقيل غيرُ ذلك، يُنظر: ((تفسير الرازي)) (77/19).

(72) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (614/13)، ((تفسير القرطبي)) (349/9)، ((تفسير ابن جزي)) (410/1)، ((تفسير ابن كثير)) (484/4)، ((تفسير أبي السعود)) (39/5)، ((تفسير ابن عاشور)) (209/13).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الذين استفتحوا هم الرسُلُ عليهم السلام: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير، وأبو السعودِ، وابنُ عاشور.

يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وابنُ جريجٍ، وقتادةُ.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (2238/7)، ((تفسير ابن جرير)) (614/13)، ((تفسير ابن الجوزي)) (507/2).

وقيل: إنَّ الذين استفتحوا هم الكفارُ، وممَّن ذهب إلى ذلك: السعدي.

يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 423).

وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ.

أي: وخَسِرَ وهلَك كُلُّ متكبِّرٍ على الحَقِّ، مُعانِدٍ له.

كما قال تعالى: أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ [ق: 24 – 26].

مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (16).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ زيدٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (617/13).

قال ابنُ كثير: (قوله: وَاسْتَفْتَحُوا أي: استنصَرَت الرسُلُ ربَّها على قومِها.

قاله ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وقتادةُ.

وقال عبدُالرحمن بنُ زيدِ بنِ أسلَمَ: استفتَحَت الأمَمُ على أنفُسِها، كما قالوا: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [الأنفال: 32].

ويحتملُ أن يكونَ هذا مرادًا وهذا مرادًا، كما أنَّهم استفتحوا على أنفُسِهم يومَ بدر، واستفتحَ رسولُ الله واستنصَر، وقال اللهُ تعالى للمشركين: إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ الآية [الأنفال: 19]، والله أعلم).

((تفسير ابن كثير)) (484/4).

ويُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (39/5)، ((تفسير ابن عاشور)) (209/13).

مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ.

أي: مِن أمامِ كُلِّ جبَّارٍ عَنيدٍ نارُ جَهنَّمَ تنتَظِرُه، فهو صائرٌ إليها في الآخرةِ.(73)

وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ.

أي: ويُسقَى في جهنَّمَ مِن القَيحِ والدَّمِ الذي يسيلُ مِن أبدانِ أهلِ النَّارِ.(74)

يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (17).

(73) نقل ابنُ عطية (٥/ ٢٣٣) عن الطبري وغيره من المفسرين أنّ معنى: ﴿مِن ورائِهِ﴾، أي: مِن أمامه، وأنهم حملوا على ذلك قوله تعالى: ﴿وكانَ وراءَهُمْ مَلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩]، ثم انتقده (٥/ ٢٣٤) مستندًا إلى اللغة قائلًا: «وليس الأمر كما ذكر، و» الوراء «ها هنا على بابه، أي: هو ما يأتي بعدُ في الزمان، وذلك أنّ التقدير في هذه الحوادث بالأمام والوراء إنما هو بالزمان، وما تقدم فهو أمامٌ، وهو بين اليد، كما يقال في التوراة والإنجيل: إنهما بين يدي القرآن، والقرآن وراءَهما على هذا، وما تأخر في الزمان هو وراءَ المتقدم، ومنه قولهم لولد الولد: الوراء، وهذا الجبّار العنيد وجوده وكفره وأعماله في وقت مّا، ثم بعد ذلك في الزمان يأتيه أمر جهنم.
وتلخيص هذا أن يُشَبَّه الزمان بطريق تأتي الحوادث من جهته الواحدة متتابعة، فما تقدم فهو أمام، وما تأخر فهو وراء المتقدم، وكذلك قوله: ﴿وكانَ وراءَهُمْ﴾ أي: غَصْبُه وتَغَلُّبه يأتي بعد حذرهم وتحفظهم».
(74) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (618/13)، ((تفسير البغوي)) (33/3)، ((تفسير ابن كثير)) (485/4).
قال ابن كثير: (وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ أي: في النَّارِ، ليس له شرابٌ إلَّا من حميمٍ أو غسَّاقٍ، فهذا في غايةِ الحرارة، وهذا في غايةِ البَرِدِ والنَّتن، كما قال: هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ [ص: 57- 58]).
((تفسير ابن كثير)) (485/4).

يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ.

أي: يتحسَّى ذلك الجبَّارُ العنيدُ الصَّديدَ، ويشرَبُه قَهرًا- مِن شِدَّةِ عَطَشِه- على جَرعاتٍ، ولا يَكادُ يَبتَلِعُه؛ مِن شِدَّةِ خُبثِه وكراهتِه.(75)

وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ.

أي: ويأتيه الموتُ وآلامُه وشِدَّتُه مِن كُلِّ مَوضِعٍ في جسَدِه، ومِن كُلِّ الجِهاتِ، وهو مع ذلك لا يموتُ فيستريحَ مِن العذابِ.

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا [فاطر: 36- 37].

وقال سُبحانه: وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى [الأعلى: 11 – 13].

وقال تعالى: إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى [طه: 74].

---

(75) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٢٣٥) أنه يُروى: «أنّ الكافر يؤتى بالشربة مِن شراب أهل النار فيتكرهها، فإذا أُدنيَت منه شوَت وجهه، وسقطت فيها فروة رأسه، فإذا شربها قطّعت أمعاءه».
ثم علّق بقوله: «وهذا الخبر مفرّقٌ في آيات من كتاب الله».

وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ.

أي: ومِن أمامِه عذابٌ آخَرُ قَويٌّ شديدٌ ينتظِرُه غيرُ ما هو فيه مِن العَذابِ.

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (18).

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ.

أي: مثَلُ أعمالِ الذين كفَروا برَبِّهم كرمادٍ طيَّرَتْه وفرَّقَتْه الرِّيحُ القَويَّةُ في يومٍ يشتَدُّ فيه هُبوبُها، فلم يبقَ مِن الرَّمادِ شَيءٌ، فكذلك أعمالُ البِرِّ والخيرِ التي يعمَلُها الكافِرونَ؛ يُبطِلُها الكُفرُ، ويُذهِبُ ثوابَها، كما تُذهِبُ تلك الريحُ الشَّديدةُ الرَّمادَ.(76)

---

(76) والقولُ بأنَّ المرادَ بأعمالِ الكفَّارِ هنا: أعمالُ الخيرِ والبِرِّ، كالصدقاتِ وغيرِها، هو ظاهرُ اختيارِ ابنِ جريرٍ، والقرطبيِّ، وابنِ القيِّمِ، وابنِ كثيرٍ، وابنِ عاشورٍ، والشنقيطي.

يُنظر: المصادر السابقة.

قال الرازي: (اختلفوا في المرادِ بهذه الأعمالِ على وجوهٍ: الوجه الأول: أن المراد منها ما عَمِلوه من أعمال البرِّ، كالصَّدَقة وصِلة الرَّحم وبِرِّ الوالدين وإطعام الجائع؛ وذلك لأنها تصير مُحبَطةً باطلة بسبَبِ كفرهم، ولولا كفرُهم لانتفعوا بها.

والوجه الثاني: أن المرادَ مِن تلك الأعمال عبادتُهم للأصنام وما تكلَّفوه مِن كفرهم الذي ظنوه إيمانًا وطريقًا إلى الخلاص، والوجهُ في خسرانها أنَّهم أتعبوا أبدانَهم فيها الدهرَ الطويلَ؛ لكي ينتفعوا بها، فصارت وَبالًا عليهم.

والوجه الثالث: أنَّ المرادَ مِن هذه الأعمالِ كلا القسمينِ؛ لأنَّهم إذا رأوا الأعمالَ التي كانت في أنفُسِها خيراتٍ قد بطَلَت، والأعمالَ التي ظنُّوها خيراتٍ وأفنَوا فيها أعمارَهم قد بطلت أيضًا، وصارت مِن أعظمِ المُوجِباتِ لعذابِهم؛ فلا شكَّ أنَّه تعظُم حسرتُهم وندامتُهم؛ فلذلك قال تعالى: ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ).

((تفسير الرازي)) (81/19).

كما قال تعالى: وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا [الفرقان: 23].

لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ.

أي: لا يجِدُ الكُفَّارُ في الآخرةِ أيَّ ثوابٍ لأعمالِ البِرِّ التي عَمِلوها في الدُّنيا، ولا يَرونَ لها أيَّ منفعةٍ، مثلما لا يُقدَرُ على جَمعِ الرَّمادِ في اليومِ العاصِفِ.

ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ.

أي: أعمالُهم التي بطَلَت وفقَدوا ثوابَها لم تكُنْ على هُدًى واستقامةٍ، فكانوا في خطأٍ وانحرافٍ بعيدٍ عن طريقِ الصَّوابِ، لا يُمكِنُ معه تدارُكُ تلك الخَسارةِ الكبيرةِ.

وقال السعدي: (إمَّا أن المراد بها الأعمالُ التي عَمِلوها لله، بأنَّها في ذهابها وبُطلانِها واضمحلالِها كاضمحلالِ الرَّمادِ -الذي هو أدقُّ الأشياءِ وأخفُّها- إذا اشتدَّت به الريحُ في يوم عاصف شديدِ الهبوب، فإنَّه لا يُبقي منه شيئًا، ولا يُقدَرُ منه على شيءٍ، يذهب ويضمَحِلُّ، فكذلك أعمالُ الكفار .
وإمَّا أنَّ المرادَ بذلك أعمالُ الكفَّار التي عَمِلوها ليَكيدوا بها الحقَّ، فإنَّهم يَسعَونَ ويكدحون في ذلك ومَكرُهم عائِدٌ عليهم، ولن يضرُّوا اللهَ ورُسُلَه وجُندَه وما معهم من الحقّ شيئًا).
((تفسير السعدي)) (ص: 424).

سورةُ إبراهيمَ

الآيات (19–21)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (20) وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (21)

غريب الكلمات:

وَبَرَزُوا: أي: ظَهَروا وخَرَجوا مِن قُبورِهم، وأصلُ (برز): يدلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ وبُدُوِّه.

أَجَزِعْنَا: الجزعُ: حزنٌ يصرِفُ الإنسانَ عمَّا هو بصددِه، ويقطعُه عنه، وأصلُ الجزعِ: قطعُ الحبلِ مِن نصفِه.

مَحِيصٍ: أي: مَعدِلٍ ومَهرَبٍ، وأصلُ (حيص): يدلُّ على المَيلِ في جَورٍ.

تفسير الآيات:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19)﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾.

أي: ألم تَرَ[77] أنَّ اللهَ خلقَ السَّمواتِ والأرضَ وَحدَه بغيرِ ظَهيرٍ ولا مُعينٍ، لأمرٍ عظيمٍ؛ ليعبدَه الخلقُ، ويعرِفوا ما له من صِفاتِ الكَمالِ، وأنَّه القادِرُ على إعادةِ الخَلقِ يومَ القيامةِ، فهو سبحانَه لم يخلُقْهنَّ عَبَثًا؟[78]

---

(77) قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الرُّؤيةُ هنا هي القلبيَّةُ.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (354/9)، ((تفسير الشوكاني)) (123/3).

والخطابُ فيه: قيل: هو خِطابٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمُرادُ به أُمَّتُه.

وقيل: خِطابٌ لكلِّ واحدٍ مِن الكَفَرةِ.

وقيل: خطابٌ لكلِّ مَن يصلحُ للخطابِ غيرَ معيَّنٍ، وكلِّ مَن يُظَنُّ به التساؤلُ عن إمكانِ إهلاكِ المشركينَ.

يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (196/3)، ((تفسير ابن عاشور)) (214/13).

قال ابنُ جَريرٍ: (يقولُ عَزَّ ذِكْرُه لِنَبيِّه محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ - يا محمَّدُ - بعَينِ قَلْبِك، فتَعلَمَ أنَّ اللهَ أنشأَ السَّمواتِ والأرضَ بالحقِّ مُنفرِدًا بإنشائِها بغيرِ ظَهيرٍ ولا مُعينٍ).

((تفسير ابن جرير)) (625/13).

(78) قال أبو حيان: (ومعنى ﴿بِالْحَقِّ﴾ قال الزَّمخشريُّ: بالحِكمةِ، والغرَضِ الصَّحيحِ، والأمْرِ العظيمِ، ولم يَخلُقْها عبَثًا ولا شَهوةً.

وقال ابنُ عطيَّةَ: ﴿بِالْحَقِّ﴾، أي: بما يَحِقُّ مِن جِهَةِ مَصالحِ عِبادِه، وإنفاذِ سابِقِ قَضائِه، وليَدُلَّ عليه وعلى قُدرتِه.

وقِيلَ: بقولِه وكَلامِه.

وقِيلَ: ﴿بِالْحَقِّ﴾ حالٌ، أي: مُحِقًّا).

((تفسير أبي حيان)) (424/6).

ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (547/2)، ((تفسير ابن عطية)) (332/3).

كما قال تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [الدخان: 38–39].

وقال سُبحانه: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [الأحقاف: 33].

وقال تعالى: لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [غافر: 57].

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ.

أي: إنَّ القادِرَ الذي تفرَّدَ بخَلقِ السَّمواتِ والأرضِ إن شاء أن يُفنِيَكم- أيُّها النَّاسُ- إن عَصَيتُموه، أفناكم، ويأتِ بقومٍ غَيرِكم أفضَلَ وأطوَعَ لله منكم.

كما قال الله تعالى: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا [النساء: 133].

وقال سُبحانه: وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ [محمد: 38].

وقال عزَّ وجلَّ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [المائدة: 54].

وقال تعالى: نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا [الإنسان: 28].

وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (20).

أي: وما إذهابُكم- أيُّها النَّاسُ- والإتيانُ بخَلقٍ آخَرَ مَكانَكم، بمُمتَنِعٍ على اللهِ ولا مُتعَذِّرٍ، بل هو سَهلٌ يَسيرٌ عليه سُبحانَه.

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (21).

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا.

أي: وظهَروا[(79)] جميعًا مِن قُبورِهم لله وَحدَه يومَ القيامةِ، مجتمعينَ في أرضٍ مُستَويةٍ لا يخفَى فيها أحدٌ منهم.

---

(79) قيل: المرادُ بهم: الذين كفروا.
وممن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، والعليمي.
((تفسير ابن جرير)) (13/626)، ((تفسير القرطبي)) (9/355)، ((تفسير العليمي)) (3/515).
وقيل: المرادُ: جميعُ النَّاسِ بَرُّهم وفاجِرُهم.
وممَّن اختار هذا القولَ: أبو حيان، وابنُ كثيرٍ، والسعدي.
يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (6/425)، ((تفسير ابن كثير)) (4/488)، ((تفسير السعدي)) (ص: 424).

كما قال تعالى: يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [غافر: 16].

وقال سُبحانه: يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ [الحاقة: 18].

فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا.

أي: فقال الأتباعُ لقادتِهم وسادتِهم الذين كانوا يستكبِرونَ في الدُّنيا عن اتِّباعِ الحَقِّ: إنَّا كنَّا لكم في الدُّنيا أتباعًا نُطيعُكم ونقَلِّدُكم، فأضلَلْتُمونا.

كما قال تعالى: وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ [غافر: 47-48].

فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ.

أي: فهل أنتم دافِعونَ عنَّا اليومَ شَيئًا- ولو قليلًا- مِن عذابِ اللهِ؟

قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ.

أي: قال القادةُ المَتبوعونَ لأتباعِهم: لو هَدانا اللهُ إلى الحَقِّ، لهدَيناكم إليه، فلمَّا أضلَّنا أضلَلْناكم، فحقَّ علينا وعليكم عذابُ اللهِ.

كما قال تعالى حاكيًا قولَ القادةِ لأتباعِهم: فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ [الصافات: 31-32].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [سبأ: 31-33].

سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ.

أي: سواءٌ علينا أجزِعْنا مِن العذابِ أم صَبَرْنا عليه، ما لنا في كِلا الحالَينِ مِن مَهرَبٍ ولا ملجأٍ نَفِرُّ إليه مِن عذابِ اللهِ.(80)

(80) قال القاسميُّ: (استظهَرَ ابنُ كثيرٍ هذه المُراجعةَ في النَّارِ بعدَ دُخولِهم إليها؛ لِآيةِ: وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ [غافر: 47].
ولا يَخفى أنَّ الآيةَ في هذه السُّورةِ تَصدُقُ بالتَّخاصُمِ في الموقفِ وفي النَّارِ؛ لإفادَتِها أنَّ ذلك أثَرُ بُروزِهم، وهو صادِقٌ بما ذكَرْنا، فلا قَرينةَ فيها لكونِ ذلك في النَّارِ فقط، كما ادَّعاهُ.
وربَّما كان قولُه: وَبَرَزُوا يدُلُّ للمَوقِفِ بمعناه المُتقدِّمِ.
ثُمَّ إنَّ هذا التَّخاصُمَ يجوزُ أنْ يكونَ مُتعدِّدَ المواطِنِ؛ لظاهِرِ قولِه: عِنْدَ رَبِّهِمْ، وقولِه: فِي النَّارِ، ويجوزُ أنْ يكونَ مرَّةً واحدةً).
((تفسير القاسمي)) (6/311).
ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (4/488).

كما قال سُبحانه: اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [الطور: 16].

سورةُ إبراهيمَ

الآيتان (22–23)

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ
عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا
بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
(22) وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (23)

غريب الكلمات:

بِمُصْرِخِكُمْ: أي: بمُغيثِكم ومُنقِذِكم، وأصلُ (صرخ): يدلُّ على صَوتٍ رَفيعٍ.

تفسير الآيتين:

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (22).

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ.

أي: وقال إبليسُ- وهو أوَّلُ المُستكبرينَ المتبوعينَ في الضَّلالِ- لأتباعِه لَمَّا أدخَلَ اللهُ أهلَ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلَ النَّارِ النَّارَ: إنَّ اللهَ وعَدَكم على ألسِنةِ رُسُلِه وعدًا صادِقًا متحقِّقًا لا يُخلَفُ بوقوعِ البعثِ، وإثابةِ المُطيعِ بالجنَّةِ، والعاصي بالنَّارِ، ووعَدكم أنَّ في اتِّباعِ هؤلاء الرسلِ النَّجاةَ وَالسَّلامَةَ، فوفَى بوعدِه، ووَعَدتُكم أنْ لا بعثَ، ولا جَنَّةَ ولا نارَ، ولَا ثوابَ ولَا عِقابَ، ووعدتُكم النُّصرةَ، فأخلفتُ وعدي لكم، وكذَبْتُ عليكم.(81)

كما قال الله تعالى: يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا [النساء: 120].

---

(81) قال ابن عاشور: (وشَمِلَ وعدُ الحَقِّ جميعَ ما وعَدهم اللهُ بالقرآنِ على لسانِ رسولِه عليه الصلاةُ والسلامُ، وشَمِلَ الخُلْفُ جميعَ ما كان يعِدُهم الشيطانُ على لسانِ أوليائِه، وما يعِدُهم إلَّا غُرورًا).

((تفسير ابن عاشور)) (219/13).

﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

أي: قال إبليسُ لأهلِ النَّارِ: وما أظهرتُ لكم أيَّ حجَّةٍ تدُلُّ على صِدقي فيما وعدتُكم به، ولكِنْ دعوتُكم إلى الكُفرِ باللهِ والإشراكِ به ومَعصيتِه، فأطعتُموني واتَّبعتُموني بلا بُرهانٍ.(82)

﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

أي: فلا تَلوموني اليومَ على طاعتِكم واتِّباعِكم لي بلا حُجَّةٍ، ولوموا أنفُسَكم على ذلك؛ فأنتم السَّبَبُ في دخُولِكم النَّارَ؛ لأنَّكم مُؤاخَذونَ بكَسبِكم، ولكم قُدرةٌ واختيارٌ، فاختَرتُم الشَّرَّ على الخيرِ.

---

(82) وممن اختار أنَّ السلطانَ هنا بمعنَى الحجةِ والبرهانِ: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، وابنُ القيمِ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي.

يُنظر: المصادر السابقة.

وقِيل: المرادُ بالسُّلطانِ هنا: التسلطُ والقهرُ.

وممن اختاره: الزمخشري، والبيضاوي، والبقاعي، وابنُ عاشورٍ.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (2/550)، ((تفسير البيضاوي)) (3/197)، ((نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)) للبقاعي (10/407)، ((تفسير ابن عاشور)) (13/219).

قال ابنُ عطيةَ: (يحتملُ أن يريدَ بـ «السلطان» في هذه الآيةِ الغلبةَ والقدرةَ والملكَ، أي: ما اضْطررتُكم، ولا خوَّفْتُكم بقوةٍ منّي، بل عرضْتُ عليكم شيئًا، فأتَى رأيُكم عليه).

((تفسير ابن عطية)) (3/334).

وجمَع الثعلبيُّ بينَ المعنيين، فقال: (﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ ولايةٍ ومملكةٍ، وحجةٍ وبصيرةٍ).

((تفسير الثعلبي)) (5/313).

مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ.

أي: ما أنا بمُغيثِكم ومُنقِذِكم من النَّارِ، وما أنتم بمُغيثينَ ومُنقذينَ لي من النَّارِ؛ فكلٌّ مِنَّا له قِسْطُه من العذابِ.

كما قال تعالى: وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ [الصافات: 27 – 33].

وقال سُبحانه: وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ * وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ [الزخرف: 36 – 39].

إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ.

أي: إِنِّي جَحَدْتُ وتبرَّأتُ مِن جَعْلِكم لي شَريكًا لله في العبادةِ والطَّاعةِ مِن قَبلُ في الدُّنيا.(83)

---

(83) نقل ابنُ كثير (٨/ ١٩٣) عن قتادة في قوله تعالى: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾، «أي: بسبب ما أشركتمون من قبل».

ثم نقل عن ابن جرير أنّ المعنى: «إِنّي جحدت أن أكون شريكًا لله – عز وجل –».

ثم رجَّح قولَ ابن جرير مستندًا إلى دلالة القرآن قائلًا: «وهذا الذي قاله هو الراجح، كما قال تعالى: ﴿وَمَن أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ القِيامَةِ وهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ * وإذا حُشِرَ النّاسُ كانُوا لَهُمْ أعْداءً وكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥ – ٦]، وقال: ﴿كَلا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ ويَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]».

وما نقلَه ابن كثير عن قتادة هو خلاف المثبت عنه هنا، وما عزاه لابن جرير ليس في تفسيره (١٣/ ٦٣٢).

كما قال تعالى: وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا [مريم: 81–82].

وقال سبُحانه: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ [يس: 60 – 62].

وقال عزَّ وجَلَّ: وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ [الأحقاف: 5– 6].

إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

أي: إنَّ الكافرينَ– الذين ظلَموا أنفُسَهم بوَضعِهم العِبادةَ والطَّاعةَ في غيرِ مَوضِعِها– لهم عَذابٌ مُوجِعٌ.(84)

---

(84) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (629/13)، ((البسيط)) للواحدي (461/12)، ((تفسير السعدي)) (ص: 425).

قال أبو حيان: (الظاهِرُ أنَّه من تمامِ كلامِ إبليسَ، حكى اللهُ عنه ما سيقولُه في ذلك الوقت؛ ليكونَ تنبيهًا للسَّامعين على النَّظرِ في عاقبتِهم، والاستعدادِ لِما لا بُدَّ منه...

وقيل: هو من كلامِ الخزَنةِ يوم ذاك.

وقيل: مِن كلامِ الله تعالى).

((تفسير أبي حيان)) (430/6).

وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (23).

وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.

أي: وأُدخِلَ الذين آمنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحاتِ، فأطاعوا اللهَ تعالى واجتَنَبوا مَعصِيتَه؛ بساتينَ تجري الأنهارُ سارِحةً مِن تحتِ ما علا منها، كالغُرَفِ والمباني والأشجارِ وغيرِها.

خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ.

أي: ماكثينَ في الجنَّةِ بأمرِ رَبِّهم.

تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ.

أي: تحيةُ بعضِهم لبعضٍ، وتحيةُ اللهِ لهم، وتحيةُ الملائكةِ إيَّاهم(85): سلامٌ.(86)

---

(85) ممن اختار أنَّ الله يحيِّيهم بهذه الكلمةِ، والملائكةَ يحيُّونَهم بها، وبعضَهم يحيِّي بعضًا بها: الرازي، والرسعني، ومحمد رشيد رضا.

يُنظر: المصادر السابقة.

قال محمَّد رشيد رضا في قولِه: وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ [يونس: 10] : (وهذه التَّحيَّةُ تكونُ مِنه عَزَّ وَجَلَّ لهمْ؛ كما قال في سُورةِ الأحْزابِ: تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ [الأحزاب: 44] ، وفي سُورة (يس): سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ [يس: 58] ، وتكونُ مِنَ الملائكةِ لهم عندَ دُخولِ الجنَّةِ؛ كما قال في سُورةِ الزُّمَرِ: وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ [الزمر: 73] ومِثْلُهُ في سُورةِ النَّحلِ: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [النحل: 32] ، وفي كلِّ وقْتٍ يَدْخُلون فيه عليهِمْ؛ كما قال في سُورةِ الرَّعْدِ: وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ [الرعد: 23، 24]، وتكونُ منهمْ بَعضِهمْ لِبَعضٍ، وهو المُتَبادَرُ مِن قولِه تَعالى في سُورةِ مريَمَ: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا [مريم: 62]، وفي سُورةِ الواقعةِ: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا [الواقعة: 25، 26]؛ فإنَّ اللَّغْوَ والتَّأثيمَ مِن شَأْنِ كَلامِ البشَرِ، فلمَّا نَفَى وُقُوعَهُما منهُمْ في الجنَّةِ، واسْتَدْرَكَ على نَفْيِهِ باستِثْناءِ كَلمةِ سَلامٍ مُنْقَطِعًا؛ تَرجَّحَ أنْ يكونَ المُرادُ به سَلامَ بَعضِهِمْ على بَعضٍ، أو عامًّا يَشمَلُه.

والجُملةُ في آيَتِنا: وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ تَشمَلُ الأنواعَ كُلَّها).

((تفسير المنار)) (253/11).

وقال الواحدي: (قولُه: تَحِيَّتُهُمْ مَصدرٌ مُضافٌ؛ فإنْ جَعلْتَه مُضافًا إلى الفاعِلِ، فهو تَحِيَّةُ بَعضِهِم بعضًا، وإنْ جَعلْتَه مُضافًا إلى المفعولِ، فهو تَحِيَّةُ اللهِ إيَّاهم والملائكةِ، وقد ذكَرَ ابنُ عبَّاسٍ الوَجْهينِ).

((البسيط)) (462/12).

وقيل: المراد: تَحِيِّيهم الملائكةُ.

وهذا ظاهر اختيار ابن جرير، والشوكاني، والقاسمي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (634/13)، ((تفسير الشوكاني)) (126/3)، ((تفسير القاسمي)) (313/6).

وممَّنْ قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ جريجٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (634/13).

وقيل: المراد: يحيِّي أهلُ الجنَّة بعضُهم بعضًا بالسلامِ.

وممن اختار ذلك: السعدي، وابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 425)، ((تفسير ابن عاشور)) (104/11).

وقيل: المرادُ: تحيَّتُهم فيما بينهم وتحيَّة الملائكةِ لهم.

وممن اختار هذا القول: ابن أبي زمنين، والبغوي، والبقاعي، والعليمي.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [يونس: 9–10].

وقال سبحانه: تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ [الأحزاب: 44].

يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (2/245)، ((تفسير البغوي)) (3/37)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (10/410)، ((تفسير العليمي)) (3/518).

ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (2/151، 247).

(86) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (12/461)، ((تفسير ابن عطية)) (3/334)، ((تفسير السعدي)) (ص: 425).

قال الرازي: (اعلَمْ أنَّ السَّلامَ مشتَقٌّ من السلامة، والأظهرُ أنَّ المرادَ أنهم سَلِموا من آفاتِ الدنيا وحَسَراتِها أو فنون آلامِها وأسقامِها، وأنواعِ غمومِها وهمومِها).

((تفسير الرازي)) (19/89).

وقال البقاعي: (فِيهَا سَلَامٌ أي: عافيةٌ وسلامةٌ وبقاءٌ، وقولُ كُلٍّ منهم للآخر: أدامَ اللهُ سلامتَك، ونحو هذا من الإخبارِ بدوامِ العافيةِ).

((نظم الدرر)) (10/410).

سورةُ إبراهيمَ

الآيات (24–27)

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24)
تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25) وَمَثَلُ
كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (26) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ
(27)

غريب الكلمات:

اجْتُثَّتْ: أي: استُؤصِلَت وقُطِعَت، وأصلُ (جثث): يدلُّ على تجَمُّعِ الشَّيءِ؛ لأنَّه لا يكونُ الشيءُ مجثوثًا إلَّا وقد قُلِعَ بجَميعِ أصولِه وعُروقِه حتى لا يُترَكَ منه شيءٌ.

قَرَارٍ: أي: أصلٍ وثَباتٍ، وأصلُ (قرر): يدلُّ على تمكُّنٍ.

تفسير الآيات:

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ

.(24)

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ.

أي: ألم تعلَمْ- يا محمَّدُ[87]- كيف مثَّلَ اللهُ مَثَلًا، وشبَّه شبَهًا كلمةً طَيِّبةً- وهي كلمةُ التَّوحيدِ، وشهادة أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ- كشَجَرةٍ طَيِّبةِ الثَّمرةِ، كالنَّخلةِ؟[88]

أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ.

أي: جُذورُ هذه الشَّجرةِ الطَّيِّبةِ ثابتةٌ في الأرضِ، وأغصانُها مرتفعةٌ نحوَ السَّماءِ، فكذلك كلمةُ التَّوحيدِ؛ أصلُها ثابِتٌ وراسِخٌ في قلبِ المؤمِنِ، وفرُوعُها مِن الأعمالِ الصَّالحةِ صاعِدةٌ إلى السَّماءِ، مَرفوعةٌ إلى الرَّبِّ سُبحانَه.

---

(87) وقيل: الخطابُ لكلِّ مَن يصلحُ للخطابِ.
يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (127/3)، ((تفسير ابن عاشور)) (223/13).

(88) والقولُ بأنَّ المُرادَ بالشَّجرةِ الطَّيِّبةِ النَّخلةُ، هو قولُ أكثرِ أهْلِ التَّأويلِ، يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (463/12).
قال ابنُ القيِّم: (ومِنَ السَّلفِ مَن قال: إنَّ الشَّجرةَ الطَّيِّبةَ هي النَّخلةُ، ويدُلُّ عليه حديثُ ابنِ عمَرَ الصَّحيحُ، ومنهم مَن قال: هي المُؤمِنُ نفْسُه...
ولا اختلافَ بيْن القولينِ؛ والمقصودُ بالمَثَلِ المُؤمِنُ، والنَّخلةُ مُشبَّهةٌ به، وهو مُشبَّهٌ بها، وإذا كانتِ النَّخلةُ شجرةً طَيِّبةً، فالمُؤمِنُ المُشبَّهُ بها أَولى أنْ يكونَ كذلك، ومَن قال مِنَ السَّلفِ: إنَّها شَجرةٌ في الجنَّةِ، فالنَّخلةُ مِن أشرَفِ أشجارِ الجنَّةِ).
((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) (133/1).

تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25).

تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا.

أي: تُخرِجُ هذه الشَّجرةُ الطَّيِّبةُ ثَمَرَها كامِلًا كثيرًا طَيِّبًا في كلِّ وقتٍ وساعةٍ مِن ليلٍ ونهارٍ، وصيفٍ وشِتاءٍ، بمَشيئةِ خالِقِها وأمْرِه وتيسيرِه، وكذلك كَلِمةُ التَّوحيدِ؛ لا تزالُ تُثمِرُ الأعمالَ الصَّالحةَ للمُؤمِنِ في كُلِّ وَقتٍ، ولا يزالُ يُرفَعُ له عمَلٌ صالِحٌ آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهارِ، في كلِّ حينٍ.(89)

---

(89) اختُلِف في معنى «الحين» في قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ على أقوال: الأول: تؤتي أكلها كل غداة وعشية، وكل ساعة.

الثاني: كل ستة أشهر، من طلوعها إلى جذاذها.

الثالث: كل سنة.

الرابع: كل شهرين.

ورجَّح ابنُ جرير (١٣/ ٦٥٠ - ٦٥١) مستندًا إلى الدلالة العقلية القولَ الأول، وهو قول ابن عباس من طريق العوفي ومن طريق أبي ظبيان وما في معناه، وعلَّل ذلك بقوله: «لأنّ الله -تعالى ذِكْره- ضرب ما تؤتي هذه الشجرة كل حين مِن الأُكُل لعمل المؤمن وكلامه مثلًا، ولا شكَّ أنّ المؤمن يرتفع له إلى الله في كلِّ يومٍ صالح مِن العمل والقول، لا في كلِّ سنة، أو في كلِّ ستة أشهر، أو في كلِّ شهرين، فإذ كان ذلك كذلك، فلا شك أنّ المَثَل لا يكون خلافًا للمُمَثَّل به في المعنى ...

فإن قال قائل: فأيُّ نخلةٍ تؤتي في كلِّ وقت أُكُلًا صيفًا وشتاءً؟ قيل: أمّا في الشتاء فإنّ الطَّلْعَ مِن أُكُلِها، وأمّا في الصيف فالبلح والبُسْرُ والرُّطَب والتمر، وذلك كلُّه من أُكُلِها».

واستند إلى الآثار عن قتادة، والربيع بن أنس في أنّ النخلة يؤكل ثمرها في الشتاء والصيف.

وعلَّق ابنُ عطية (٥/ ٢٤٥) على القول الأول بقوله: «وهكذا يشبهها المؤمن الذي هو في جميع أيامه في عمل، والكلمة التي أخرجها والصادر عنها من الأعمال مُسْتَمِر، فيشبه أنّ الله تعالى إنما شبَّه المؤمن أو الكلمة بالشجرة في حال إثمارها، إذ تلك أفضل أحوالها، وتأويل الطبري في ذلك أن أُكل الطَّلْع في الشتاء، وأن أُكُل الثمر في كل وقت من أوقات العام هو إتيان أُكُل وإن فارق النخل، وإن فرضنا التشبيه بها على الإطلاق وهي إنما تؤتي في وقت دون وقت، فالمعنى: كشجرة لا تخل بما جعلت له من الإتيان بالأُكل في الأوقات المعلومة، فكذلك هو المؤمن لا يُخِلّ بما يُسِّر له من الأعمال الصالحة، أو الكلمة التي لا تغيب بركتها والأعمال الصادرة عنها، بل هي في حفظ النظام كالشجرة الطيبة في حفظ وقتها المعلوم».

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كنَّا عندَ رَسولِ اللهِ – ﷺ –، فقال: أخبِروني بشَجَرةٍ تُشبِهُ أو كالرجُلِ المُسلِمِ لا يتحاتُّ[90] وَرَقُها، ولا ولا ولا. تُؤتِي أُكُلَها كُلَّ حينٍ؟ قال ابنُ عُمَرَ: فوقعَ في نفسي أنَّها النَّخلةُ، ورأيتُ أبا بكرٍ وعُمَرَ لا يتكَلَّمانِ، فكَرِهتُ أن أتكَلَّمَ، فلمَّا لم يقولوا شيئًا، قال رسولُ الله – ﷺ –: هي النَّخلةُ. فلمَّا قُمْنا قلتُ لِعُمَرَ: يا أبَتاه، واللهِ لقد كان وقَعَ في نفسي أنَّها النَّخلةُ، فقال: ما منَعَك أن تكَلَّمَ؟ قال: لم أرَكم تَكَلَّمونَ، فكَرِهتُ أن أتكَلَّمَ أو أقولَ شيئًا، قال عمَرُ: لَأنْ تكونَ قُلتَها أحبُّ إليَّ مِن كذا وكذا)).[91]

وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.

ووجَّه ابنُ عطية القول الثاني والثالث والرابع بأن مَن «قال: الحين سنة.
راعى أنّ ثمر النخلة وجناها إنما يأتي كل سنة، ومن قال: ستة أشهر.
راعى مِن وقت جداد النخل إلى حملها مِن الوقت المقبل.
وقيل: إنّ التشبيه وقع بالنخل الذي يثمر مرتين في العام.
ومن قال: شهرين.
قال: هي مدة الجني في النخل.
وكلهم أفتى بقوله في الإتيان على الحين».

ورجَّح ابنُ كثير (٨/ ١٩٧) مستندًا إلى دلالة السياق القول الأول، فقال: «والظاهر من السياق: أن المؤمن مثله كمثل شجرة لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت، من صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار، في كل وقت وحين».

(90) لا يتحاتُّ: أي: لا يتناثَرُ ويتساقَطُ.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (155/17).

(91) رواه البخاري (4698) واللفظ له، ومسلم (64).

أي: ويمثِّلُ اللهُ الأمثالَ[92] للنَّاسِ، ويُشبِّهُ لهم الأشْباهَ، ويُبيِّنُها لهم؛ ليتذكَّروا حُجَّةَ الله عليهم، ويَفهَموا ما أرادَ اللهُ منهم، فيتَّعِظوا، ويفعَلوا ما أمَرَهم به، ويجتَنِبوا ما نَهاهم عنه.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [الزمر: 27].

وقال سُبحانه: وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [الحشر: 21].

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (26).

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ.

أي: ومَثَلُ كَلِمةٍ خَبيثةٍ- وهي كَلِمةُ الكُفرِ واعتقادُ الشِّركِ- كشَجَرةٍ كريهةِ الطَّعمِ، مِثْل الحَنظلِ، فلا أصلَ لها ثابِتٌ في الأرضِ، ولا ارتفاعَ لفُروعِها في السَّماءِ، وليس لها ثمَرةٌ ولا مَنفعةٌ، وكذلك كُفرُ الكافِرِ؛ فلا يعمَلُ مع كُفْرِه خيرًا ولا يقولُه، ولا يجعَلُ اللهُ فيه بركةً ولا مَنفعةً، ولا يصعَدُ عَمَلُه ولا قَولُه إلى السَّماءِ.[93]

---

(92) قال ابنُ القيِّم: (الأمثالُ: تَشبيهُ شَيءٍ بشَيءٍ في حُكْمِه، وتَقريبُ المعقولِ مِنَ المحسوسِ، أو أحدِ المَحسوسينِ مِنَ الآخَرِ، واعتبارُ أحدِهما بالآخرِ).

((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) (116/1).

(93) قال ابنُ جريرٍ: (اختلَفَ أهْلُ التَّأويلِ فيها: أيُّ شَجرةٍ هي؟ فقال أكثرُهم: هي الحَنْظَلُ).

((تفسير ابن جرير)) (652/13).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (والشَّجرةُ الخَبيثةُ، قال أكثَرُ المُفسِّرين: هي شَجرةُ الحَنْظلِ.

قالَهُ أنسُ بنُ مالكٍ، ورواهُ عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ، وهذا عِندي على جِهَةِ المِثالِ...

والظَّاهِرُ عِندي: أنَّ التَّشبيهَ وقَع بشَجرةٍ غَيرِ مُعيَّنةٍ إذا وُجِدَت فيها هذه الأوصافُ).

((تفسير ابن عطية)) (336/3).

اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ.

أي: استُؤصِلَت هذه الشَّجرةُ الخبيثةُ، واقتُلِعَت مِن أصلِها؛ فليس لها عُروقٌ وجُذورٌ ثابِتةٌ في الأرضِ تُمسِكُها، وكذلك الكُفرُ؛ لا أصلَ له ولا فرعَ، ولا يَثبُتُ ثُبوتًا نافِعًا في قَلبِ صاحِبِه، ولا يصعَدُ للكافِرِ عمَلٌ، ولا يُتقبَّلُ منه شَيءٌ.

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (27).

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ.

أي: يثبِّتُ اللهُ المُؤمِنينَ بالقَولِ الصَّادقِ الحقِّ، الذي ثبَتَ في قُلوبِهم، وتمكَّنَ فيها، واطمأنَّتْ إليه نفوسُهم– وهو شَهادةُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ– فيُثَبِّتُهم اللهُ في حياتِهم الدُّنيا على إيمانِهم باللهِ تعالى وبرَسولِه – ﷺ –، ويُسلِّمُهم من الشَّهَواتِ والشُّبُهاتِ، ويُثَبِّتُهم أيضًا في قُبورِهم عندَ سؤالِ الملكَينِ.

عن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((المُسلِمُ إذا سُئِلَ في القبرِ يشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ. فذلك قولُه: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)).[94]

وعن أبي سعيدٍ الخُدريّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((شَهِدتُ مع رسولِ اللهِ - ﷺ - جِنازةً، فقال رسولُ اللهِ - ﷺ -: أيُّها النَّاسُ، إنَّ هذه الأمَّةَ تُبتَلَى في قُبورِها، فإذا الإنسانُ دُفِنَ فتفَرَّقَ عنه أصحابُه، جاءه ملَكٌ في يَدِه مِطراقٌ فأقعَدَه، قال: ما تقولُ في هذا الرَّجُلِ؟ فإن كان مؤمِنًا قال: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا عبدُه ورسولُه، فيقولُ: صَدَقتَ، ثمَّ يُفتَحُ له بابٌ إلى النَّارِ، فيقولُ: هذا كان مَنزِلَك لو كفَرْتَ بربِّك، فأمَّا إذ آمنتَ فهذا مَنزِلُك، فيُفتَحُ له بابٌ إلى الجنَّةِ، فيريدُ أن ينهَضَ إليه، فيقولُ له: اسكُنْ، ويُفسَحُ له في قَبرِه. وإن كان كافِرًا أو مُنافِقًا يقولُ له: ما تقولُ في هذا الرَّجُلِ؟ فيقولُ: لا أدري، سَمِعتُ النَّاسَ يقولونَ شيئًا! فيقولُ: لا دَريتَ، ولا تَليتَ،[95] ولا اهتَدَيتَ، ثمَّ يُفتَحُ له بابٌ إلى الجنَّةِ فيقولُ: هذا مَنزِلُك لو آمنْتَ بربِّك، فأمَّا إذ كفَرْتَ به فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أبدَلَك به هذا، ويُفتَحُ له بابٌ إلى النَّارِ، ثمَّ يَقمَعُه قَمعةً بالمِطراقِ يَسمَعُها خَلقُ اللهِ كُلُّهم غيرَ الثَّقَلينِ. فقال بعضُ

(94) رواه البخاري (4699) واللفظ له، ومسلم (2871).

(95) تَلَيتَ: أصلُه: تَلَوتَ؛ من تلا يتلو: إذا قرأ، فقُلِبَت الواوُ ياءً إتباعًا لـــ (دريت)؛ يعني: لا تقدِرُ أن تقرأَ وتقولَ ما هو الحَقُّ والصوابُ في القبرِ.

يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (221/1)، ((تاج العروس)) للزبيدي (91/37).

القَومِ: يا رسولَ اللهِ، ما أحدٌ يقومُ عليه ملَكٌ في يَدِه مِطراقٌ إلَّا هِيلَ[96] عند ذلك! فقال رسولُ اللهِ – ﷺ –: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ)).[97]

وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ.

أي: ويَخذُلُ اللهُ الكافرينَ والمُنافِقينَ– بسبَبِ ظُلمِهم أنفُسَهم– فيَجعَلُهم في حَيرةٍ وعَمايةٍ، فلا يُوَفِّقُهم إلى الحَقِّ في الحياةِ الدُّنيا، ولا يوَفِّقُهم في قُبورِهم إلى القَولِ الصَّائِبِ حين يُسألُونَ عن الإيمانِ باللهِ عزَّ وجلَّ وبرَسولِه – ﷺ –.

وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ.

أي: ويفعَلُ اللهُ ما يشاءُ مِن هدايةِ المؤمنينَ وتَثبيتِهم، وإضلالِ الظَّالمينَ وخِذلانِهم.

---

(96) هِيلَ: أي: فَزِعَ وَخافَ.
يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (166/31).
(97) أخرجه أحمد (11000)، وابن أبي عاصم في ((السنة)) (865)، والبزار كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (50/3).
صحَّحه ابنُ القيِّم في ((إعلام الموقعين)) (164/1)، وقال ابنُ كثيرٍ في ((تفسير القرآن)) (417/4): إسنادُه لا بأسَ به، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (50/3): رجالُه رجالُ الصحيحِ، وصحَّح إسنادَه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (3394).

سورةُ إبراهيمَ

الآيات (28-31)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (29) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (30) قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (31)

غريب الكلمات:

الْبَوَارِ: أي: الهَلاكِ، وأصلُ (بور): يدلُّ على هلاكِ الشَّيءِ.

خِلَالٌ: أي: مُخالَّةٌ ومُصادَقةٌ، مصدرُ: خاللتُه خِلالًا ومُخالَّةً، وأصلُ (خلل): يدُلُّ على فُرجةٍ، ومنه سُمِّيَ الخَليلُ؛ لأنَّه تخلَّلَ أحوالَ الآخَرِ، وعرَفَ سرائِرَه، أو لتخَلُّلِ كلِّ واحدٍ مِنهما قلبَ الآخَرِ.

تفسير الآيات:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28).

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا.

أي: ألم تنظُرْ- يا محمَّدُ- إلى كفَّارِ قُريشٍ، الذين غيَّروا نِعمةَ اللهِ عليهم ببَعثتِك رسولًا إليهم مِن اللهِ، فكفَروا باللهِ وكَذَّبوك، فلم يُؤمِنوا برِسالتِك، ويَشكُروا اللهَ عليها؟!

وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ.

أي: وأنزَلوا قومَهم- الذين اتَّبَعوهم مِن قُريشٍ- دارَ الهَلاكِ.(98)

كما قال تعالى: وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ [النحل: 112-113].

---

(98) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٢٤٩) أنّ ﴿البوار﴾ يحتمل أن يراد به: الهلاك في الآخرة، ويُفسَّر «حينئذ بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾، أي: يحترقون في حرّها ويحتملونه».

ويحتمل أن يراد به: الهلاك في الدنيا «بالقتل والخزي، فتكون الدار: قليبَ بدر ونحوه».

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (29).

أي: ودارُ الهَلاكِ هي جهنَّمُ يَدخُلونَها، ويُحيطُ بهم حَرُّها مِن جميعِ جَوانبِهم، وبِئسَ المُستقَرُّ جهنَّمُ.[99]

---

(99) ممَّن قال مِن المفسِّرين بأنَّ جهنَّمَ تفسيرٌ لدارِ البوارِ: ابنُ جرير، والواحدي، والزمخشري، وابنُ الجوزي، والرازي، والشوكاني، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (13/669)، ((الوسيط)) للواحدي (3/31)، ((تفسير الزمخشري)) (2/555)، ((تفسير ابن الجوزي)) (2/513)، ((تفسير الرازي)) (19/94)، ((تفسير الشوكاني)) (3/130-131)، ((تفسير السعدي)) (ص: 426).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ زيدٍ، وقتادةُ.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (7/2248)، ((تفسير ابن جرير)) (13/678)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (5/43).

وقيل: المراد بـ دَارَ الْبوارِ: الهلاكُ في الدنيا بالقَتلِ والخِزيِ، كما وقع يومَ بدر لمُشركي قريش.

قال ابنُ عطيةَ: (يحتملُ أن يُريدَ بـ الْبوارِ: الهلاكَ في الآخرة، ففسَّرَه حينئذٍ بقولِه: جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا يحترِقون في حَرِّها ويحتملونه، ويحتمِلُ أن يريدَ بـ الْبَوارِ: الهلاكَ في الدنيا بالقتلِ والخزيِ، فتكون «الدار» قليبَ بدرٍ ونحوه.

وقال عطاءٌ: نزلَتْ هذه الآيةُ في قتلَى بدرٍ).

((تفسير ابن عطية)) (3/338).

وممن جمَع بينَ القولين: السعدي، وابنُ عاشور.

قال السِّعديُّ: (وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ وهي النَّارُ؛ حيث تَسبَّبوا لإضلالِهم، فصاروا وَبالًا على قومِهم، مِن حيثُ يُظَنُّ نفْعُهم، ومِن ذلك: أنَّهم زَيَّنوا لهم الخُروجَ يومَ بدْرٍ؛ لِيُحارِبوا اللهَ ورسولَهُ، فجرَى عليهم ما جرى، وقُتِلَ كثيرٌ مِن كُبرائِهم وصَناديدِهم في تلك الوَقْعة).

((تفسير السعدي)) (ص: 426).

وقال ابنُ عاشورٍ: (البَوارُ: الهَلاكُ والخُسرانُ.

ودارُهُ: محَلُّه الَّذي وقَعَ فيه.

والإحلالُ بها: الإنزالُ فيها، والمُرادُ بالإحلالِ: التَّسبُّبُ فيه، أي: كانوا سبَبًا لِحُلولِ قَومِهم بدارِ البوارِ، وهي جهنَّمُ في الآخرة، ومَواقِعُ القَتْلِ والخِزْيِ في الدُّنيا؛ مِثْلُ مَوقِعِ بدْرٍ، فيجوزُ أنْ يكونَ دَارَ الْبَوَارِ جهنَّمَ، وبه فَسَّرَ عليٌّ وابنُ عبَّاسٍ وكثيرٌ مِنَ العُلماءِ، ويَجوزُ أنْ تكونَ أرضَ بدْرٍ، وهو رِوايةٌ عن عليٍّ، وعن ابنِ عبَّاسٍ).

وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (30).

وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ.

أي: وجعَل أولئك الكُفَّارُ لله نُظراءَ وشُركاءَ، يعبُدونَهم معه؛ كي يُضِلُّوا الناسَ عن دينِ اللهِ الحَقِّ، وإخلاصِ العِبادةِ له وَحدَه.

قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ.

أي: قُلْ لهم- يا محمَّدُ: استمتِعوا في حياتِكم الدُّنيا الفانيةِ؛ فإنَّ مَرجِعَكم في الآخرةِ إلى النَّارِ.

كما قال تعالى: قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ [يونس: 69- 70].

وقال سُبحانه: قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ [الزمر: 8].

وقال تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ [محمد: 12].

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (31).

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ.

((تفسير ابن عاشور)) (13/229).

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- لعبادي المؤمنينَ يُقيموا الصَّلَواتِ الخَمسَ المَفروضةَ عليهم، بحُدودِها في أوقاتِها.(100)

وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً.

أي: ويُنفِقوا ممَّا رَزَقناهم مِن فَضلِنا، فيُؤدُّوا ما أوجبْتُ عليهم مِن الحقوقِ سرًّا وإعلانًا.(101)

مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ.

أي: مِن قَبلِ أن يأتيَ يومُ القيامةِ الذي لا يَقدِرونَ فيه على ذلك، ولا سبيلَ إلى استدراكِ ما فات، لا بمُعاوَضةِ بَيعٍ وشراءٍ، ولا بِهِبَةِ خَليلٍ وصَديقٍ؛ فكُلُّ امرئٍ له شأنٌ يُغنِيه.

---

(100) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٢٥٠) أنّ ابن عباس فسّر قوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ ويُنْفِقُوا مِمّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وعَلانِيَةً﴾ بالصلوات الخمس، وزكاة الأموال مجملًا، ثم علَّق عليه بقوله: «وهذا عندي منه تقريب للمخاطب».

(101) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (13/679).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالنَّفَقةِ: النفقةُ الواجبةُ: ابنُ جرير، وابنُ أبي زمنين.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (13/679)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (2/370).

وممن قال مِن السلفِ أنَّ المرادَ بها: الزكاةُ: ابنُ عباسٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (13/680).

وقيل: الآيةُ تشمَلُ النَّفَقاتِ الواجبةَ والمُستحبَّة.

وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (4/510)، ((تفسير السعدي)) (ص: 426).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (والسِّرُّ: صَدقةُ التَّنفُّلِ، والعَلانيةُ: المفروضةُ، وهذا هو مُقْتضى الأحاديثِ. وفسَّرَ ابنُ عبَّاسٍ هذه الآيةَ بزكاةِ الأموالِ مُجْمَلًا، وكذلك فسَّرَ الصَّلاةَ بأنَّها الخَمْسُ، وهذا منه عِندي تقريبٌ للمُخاطَبِ).

((تفسير ابن عطية)) (3/339)، ويُنظر: ((تفسير العليمي)) (3/523).

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ [البقرة: 254].

سورةُ إبراهيمَ

الآيات (32-34)

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ
وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا
نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)

غريب الكلمات:

دَائِبَيْنِ: دائِمَينِ، لا يَفتُرانِ، والدُّؤُوبُ: مُرورُ الشَّيءِ في العمَلِ على عادةٍ جاريةٍ فيه، وأصلُ (دأب): يدلُّ على مُلازمةٍ ودَوامٍ.

تُحْصُوهَا: أي: تحصرُوها، وتضبِطوا عدَّها، وتُطيقوا إحصاءَ عددِها، وأصلُ الإحصاءِ: العدُّ والإطاقةُ.

تفسير الآيات:

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32).

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ.

أي: اللهُ المُستحِقُّ للعبادةِ وَحدَه هو الذي أنشأ السَّمواتِ والأرضَ مِن العدَمِ، وأبدعَهما على غيرِ مثالٍ سابقٍ.

وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ.

أي: وأنزَل مِن السَّحابِ مَطَرًا، فأخرجَ به مِن الثَّمَراتِ المُتنوِّعةِ رِزقًا لكم تعيشونَ به.

وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ.

أي: وذلَّلَ لكم السُّفُنَ لتجريَ بكم في البحرِ بإذنِه، فهو الذي يسَّرَ لكم صُنعَها، وأقدَرَكم عليها، وجعَلَها طافيةً على البَحرِ بتَيسيرِه، وحَفِظَها على تيَّارِ الماءِ لتحمِلَكم، مع كفِّ العواصِفِ عنها وإعانتِها بالرِّيحِ الطَّيِّبةِ، فتركبونَها لتنتقِلوا عَبْرَها من مكانٍ إلى آخرَ، وتَحمِلوا فيها أمتِعَتكم مِن بلدٍ إلى بلدٍ.

كما قال تعالى:... وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ [البقرة: 164].

وقال سُبحانه: أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ [لقمان: 31].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ [الشورى: 32 - 33].

وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ.

أي: وذلَّلَ لكم الأنهارَ لتشربُوا مِن مياهِها، وتَسقُوا بها زُروعَكم وأنعامَكم، وذلَّلَها لكم بالرُّكوبِ عليها، والإجراءِ لها إلى حيثُ تُريدون.

وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33).

وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ.

أي: وذلَّلَ لكم الشَّمسَ والقمَرَ يدأبانِ في سَيرِهما، فيتعاقَبانِ عليكم بلا انقطاعٍ؛ لتحقيقِ مَصالِحِكم، كحِسابِ أزمِنَتِكم، وضَبطِ أوقاتِكم، ونفعِ أبدانِكم، وحيواناتِكم، وزُروعِكم، وثمارِكم، وغيرِ ذلك.

كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [يونس: 5].

وقال سُبحانه: وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ [النحل: 12].

وقال تبارك وتعالى: وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [يس: 38 – 40].

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ.

أي: وذلَّل اللهُ لكم اللَّيلَ والنَّهارَ يتعاقبانِ عليكم؛ فجعل الليلَ لِتَسكُنوا فيه؛ راحةً لأبدانِكم، وجعل النَّهارَ لِتبتَغوا فيه مِن فَضلِه.

كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ [يونس: 67].

وقال سُبحانه: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [القصص: 71 – 73].

وقال عزَّ وجلَّ: وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا [النبأ: 10–11].

وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ

(34).

وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ.

أي: وأعطاكم اللهُ– أيُّها النَّاسُ– مِن كُلِّ ما رَغِبتُم إليه أن يَرزُقَكم إيَّاه، وهيَّأ لكم كلَّ ما تحتاجونَ إليه، ممَّا تَسْألونَه إيَّاه، سواءً بلسانِ حالِكم أو مقالِكم.

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا.

أي: وإن تعُدُّوا– أيُّها النَّاسُ– نِعَمَ اللهِ عليكم، لا تُطيقوا إحصاءَ عَدَدِها، والقيامَ بحَصرِها؛ لكَثرتِها، فضلًا عن القيامِ بشُكرِها، فلِمَ تُبَدِّلونَ نِعمةَ اللهِ كُفرًا؟! وهلَّا استعَنتُم بها على طاعتِه؟

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ.

أي: إنَّ الإنسانَ[102] لعَظيمُ الظُّلمِ لنَفسِه، بوضعِه العبادةَ في غيرِ مَوضِعِها، وشُكرِه غيرَ مَن أنعَمَ عليه، وتجَرُّئِه على عصيانِ ربِّه، شديدُ الجُحودِ لنِعَمِ اللهِ عليه، فلا يشكُرُه عليها، ولا يقومُ بحقِّه سُبحانَه.

---

(102) قيل: المرادُ به: الكافرُ على وجه الخصوصِ، فذلك شأنه وديدنُه.

وممن قال بذلك في الجملة: الزجاج، وابن جرير، وابن عاشور.

يُنظر: ((معاني القرآن)) (3/164)، ((تفسير ابن جرير)) (13/686)، ((تفسير ابن عاشور)) (13/237).

وقيل: المرادُ به جنسُ الإنسان من حيث هو؛ فتلك طبيعته.

وممَّن اختار ذلك: الرازي، واستظهره الشوكاني، واختاره السعدي.

يُنظر: ((تفسير الرازي)) (19/100)، ((تفسير الشوكاني)) (3/133)، ((تفسير السعدي)) (ص: 426).

سورةُ إبراهيمَ

الآيات (35-41)

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ
أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36) رَبَّنَا إِنِّي
أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً
مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي
وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (38) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (39) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ
الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ
الْحِسَابُ (41)

غريب الكلمات:

تَهْوِي: أي: تَنزِعُ، وتَميلُ، وأصلُ (هوي): يدُلُّ على مَيلِ النَّفسِ، وانحرافِها نحوَ الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35).

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا.

أي: واذكُرْ- يا محمَّدُ- إذ قال إبراهيمُ: رَبِّ، اجعَلْ مكَّةَ حَرَمًا آمِنًا لأهلِه وسُكَّانِه.

كما قال تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا [البقرة: 126].

وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ.

أي: وأبْعِدْني وأبنائي عن عبادةِ الأصنامِ، واجعَلْنا في جانبٍ، والأصنامَ في جانبٍ.

رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36).

رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ.

أي: قال إبراهيم: ربِّ، إنَّ الأصنامَ قد حَرَفَت كثيرًا مِن النَّاسِ عن طريقِ الحَقِّ؛ بسبَبِ افتِتانِهم بها، وعِبادتِها.

فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي.

أي: فمَن تبِعَني على الإيمانِ بك وتوحيدِك وفِراقِ عبادةِ الأصنامِ؛ فإنَّه مِن أهلِ دِيني، يَستَنُّ بسُنَّتي، ويعمَلُ بمِثلِ عَمَلي.

وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

ومَن عصاني فكفَر، وخالَفَ أمْري، فإنَّك غفورٌ رحيمٌ؛ بتوبتِك عليهم حتَّى يُؤْمنوا، وهدايتِهم إلى التوحيدِ، وتوفيقِهم للرُّجوعِ مِن المعصيةِ إلى الطاعةِ.

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رضي الله عنهما: ((أنَّ النبيَّ – ﷺ – تلا قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ في إبراهيمَ: رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي [إبراهيم: 36] الآيةَ، وقال عيسى عليه السَّلامُ: إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [المائدة: 118]

، فرفَعَ يديهِ، وقال: اللهمَّ، أُمَّتي أُمَّتي، وبكى. فقال اللهُ عزَّ وجلَّ: يا جبريلُ، اذهب إلى محمدٍ– وربُّكَ أعلمُ– فسَلهُ: ما يُبكيكَ؟ فأتاهُ جبريلُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فسَألهُ، فأخبرهُ رسولُ اللهِ – ﷺ – بما قالَ– وهو أعلمُ–، فقال اللهُ: يا جبريلُ، اذهبْ إلى محمدٍ، فقلْ: إنَّا سنُرضيكَ في أُمَّتكَ ولا نَسوؤُك)).(103)

(103) أخرجه مسلم (202).

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37).

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ.

أي: ربَّنا، إنِّي أسكَنتُ بعضَ ولَدِي- وهو إسماعيلُ عليه السَّلامُ- في وادٍ لا زَرْعَ فيه ولا ماءَ، عند بَيتِك الذي يَحرُمُ استِحلالُ حُرُماتِه والتَّهاوُنُ به، والاستخفافُ بحَقِّه، والتعرُّضُ له أو لأهلِه بسُوءٍ.[104]

---

(104) قال ابن كثير: (هذا دعاءٌ ثانٍ بعد الدُّعاءِ الأوَّلِ الذي دعا به عندما ولَّى عن هاجرَ وولَدِها، وذلك قبل بناء البيتِ، وهذا كان بعد بنائه؛ تأكيدًا ورغبةً إلى الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال: عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ).

((تفسير ابن كثير)) (513/4).

ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (515/2)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (424/10)، ((تفسير ابن عاشور)) (241/13).

ذكر ابنُ عطية (٥/ ٢٥٥) في معنى: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ﴾ احتمالين، فقال: «وقوله: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ﴾ إما أن يكون البيت قد كان قديمًا على ما رُوي قبل الطوفان، وكان علمه عند إبراهيم، وإما أن يكون قالها لما كان قد أعلمه الله تعالى أنه سيبني هنالك بيتًا لله تعالى فيكون مُحَرَّمًا، والمعنى: مُحَرَّمًا على الجبابرة أن تُنتهَك حرمته ويستخف بحقه.

قاله قتادة وغيره».

رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ.

أي: رَبَّنا، إنِّي أسكنتُ بعضَ ذُرِّيَّتي في هذا الوادي المقْفِرِ؛ كي يُقيمُوا الصَّلاةَ عند بيتِك المحَرَّمِ، ويَعْمُروه بذِكرِك وعبادتِك وَحدَك، فاجعَلْ قُلوبَ بعضِ النَّاسِ[105] تُسرِعُ إليهم شوقًا إلى حجِّ بَيتِك الحَرامِ.[106]

---

(105) قال ابن كثير: (قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: لو قال: «أفئدة النَّاسِ» لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناسُ كلُّهم، ولكنْ قال: مِنَ النَّاسِ فاختَصَّ به المُسلِمون).

((تفسير ابن كثير)) (514/4).

(106) قال ابنُ جزي: (لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ: اللَّامُ يحتملُ أنْ تكونَ لامَ الأمْرِ بمعنَى الدُّعاءِ، أو لامَ كيْ).

((تفسير ابن جزي)) (412/1).

وممن قال: إنَّها لامُ (كي): ابنُ جريرٍ، والزمخشري، والقاسمي، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (698/13)، ((تفسير الزمخشري)) (558/2)، ((تفسير القاسمي)) (319/6)، ((تفسير ابن عاشور)) (241/13).

قال القاسمي: (رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ أي: لكي يَأْتوا بعبادتِك...، وهو متعلِّقٌ بـ أَسْكَنْتُ أي: ما أسكنتُهم هذا الوادي إلَّا ليُقيموا الصلاةَ عندَ بيتِك المحرَّمِ، ويَعْمُروه بذكرِك وعبادتِك وحدَك).

((تفسير القاسمي)) (6/ 319).

وممن قال: هي بمعنى الدُّعاء: السعدي.

يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 427).

وقال الرَّسعنيُّ: (قولُه تعالى: رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، أي: أسكَنْتُهم لِيُقيموا الصَّلاةَ.

ويجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ مُتعلِّقةً بقولِه: وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ [إبراهيم: 35]، أي: اجْنُبْهم لِيُقيموا الصَّلاةَ).

((تفسير الرسعني)) (552/3).

وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ.

أي: وارزُقْهم مِن ثِمارِ النَّباتِ والأشجارِ بأنواعِها المُختَلِفة، بجَلْبِها إليهم؛ ليَشكُروك على ما رزَقْتَهم، ويكونَ عونًا لهم على طاعتِك.

كما قال تعالى: أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [القصص: 57].

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (38).

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ.

أي: ربَّنا، إنَّك تعلَمُ ما نُخفي في قُلوبِنا عند مسألتِنا ودُعائِك، وفي غيرِ ذلك من أحوالِنا، وتعلَمُ ما نجهَرُ به مِن دُعائِنا، وغيرِ ذلك مِن أقوالِنا وأعمالِنا.(107)

---

(107) قال ابن جرير: (هذا خبَرٌ مِن الله تعالى ذِكرُه عن استشهادِ خليلِه إبراهيم إيَّاه على ما نوى وقصد، بدُعائِه وقِيلِه: رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ [إبراهيم: 35] الآية، وأنَّه إنما قصدَ بذلك رضا الله عنه في محبَّته أن يكون ولَدُه من أهل الطاعةِ لله، وإخلاصِ العبادةِ له على مِثلِ الذي هو له).

((تفسير ابن جرير)) (701/13).

وقال القرطبي: (وقال ابن عباس ومقاتل: تعلَمُ جميعَ ما أُخفيه وما أعلنُه، من الوجدِ بإسماعيلَ وأمِّه؛ حيث أُسكِنَا بوادٍ غير ذي زَرعٍ).

((تفسير القرطبي)) (375/9).

وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ.

أي: ولا يخفى على اللهِ أيُّ شَيءٍ في الأرضِ ولا في السَّماءِ.(108)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (39).

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ.

أي: الحَمدُ لله الذي رزَقَني- رَغْمَ كِبَرِ سِنِّي- إسماعيلَ وإسحاقَ.(109)

وقال السعدي: (أي: أنت أعلَمُ بنا منَّا، فنسألُك من تدبيرِك وتربيتِك لنا أن تُيسِّرَ لنا من الأمورِ التي نعلَمُها، والتي لا نعلَمُها ما هو مقتضى عِلمِك ورحمتِك).

((تفسير السعدي)) (ص: 427).

(108) ذهب جمهورُ المفسِّرينَ إلى أنَّ هذا مِن قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ تصديقًا لما قاله إبراهيمُ مِن أنَّه سبحانه يعلمُ بما يخفيه العبادُ وما يعلنونه.

وممن عزا هذا المعنى إلى الجمهورِ: البغوي، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (44/3)، ((تفسير الشوكاني)) (135/3).

وقيل: هذا مِن كلامِ إبراهيمَ عليه السلام تتمةً لدعائِه.

وممن اختار هذا القولَ: ابنُ جريرٍ، وأبو حيان.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (701/13)، ((تفسير أبي حيان)) (449/6).

(109) قال ابنُ عطية (٥/ ٢٥٧): «وروي في قوله: ﴿عَلَى الكِبَرِ﴾ أنّه ولد له إسماعيل وهو ابن مائة وسبعة عشر عامًا.

وروي أقل من هذا.

وإسماعيل أسَنُّ من إسْحاقَ فيما رُوي، وبحسب ترتيب هذه الآية».

إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ.

أي: وهَبَ لي ربِّي الولَدَينِ؛ لأنَّه يسمَعُ دُعاءَ مَن يدعوه، ويُجيبُ طلَبَ مَن يسألُه.(110)

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (40).

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي.

أي: ربِّ، وفِّقْني لإقامةِ الصَّلَواتِ، بالمحافظةِ على أدائِها بحُدودِها، واجعَلْ مِن ذُرِّيتي مَن يقيمُها كذلك.(111)

---

(110) قال ابن تيمية: (أمَّا قولُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ فالمرادُ بالسَّمعِ هاهنا السَّمعُ الخاصُّ، وهو سمعُ الإجابةِ والقبولِ، لا السَّمعُ العامُّ؛ لأنَّه سميعٌ لكلِّ مسموعٍ).

((مجموع الفتاوى)) (14/15).

(111) قال ابنُ عطيةَ: (قولُه: رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ، دعا إبراهيمُ عليه السلامُ في أمرٍ كان مثابرًا عليه، متمسِّكًا به، ومتى دعا الإنسانُ في مثلِ هذا فإنَّما القصدُ إدامةُ ذلك الأمرِ، واستمرارُه).

((تفسير ابن عطية)) (343/3).

و(من) في قوله: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي للتبعيضِ، وممن اختاره: الرازي، والبيضاوي، والخازنُ، وأبو حيان، والألوسي.

يُنظر: ((تفسير الرازي)) (107/19)، ((تفسير البيضاوي)) (202/3)، ((تفسير الخازن)) (42/3)، ((تفسير أبي حيان)) (450/6)، ((تفسير الألوسي)) (229/7).

قال الرَّازيُّ: (وَمِنْ ذُرِّيَّتِي، أي: واجعَلْ بَعضَ ذُرِّيَّتي كذلك؛ لأنَّ كلمةَ «مِن» في قولِه: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي للتَّبعيضِ، وإنَّما ذكَرَ هذا التَّبعيضَ؛ لأنَّه علِمَ بإعلامِ اللهِ تعالى أنَّه يكونُ في ذُرِّيَّتِه جمْعٌ مِنَ الكُفَّارِ، وذلك قولُه: لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ [البقرة: 124]).

((تفسير الرازي)) (107/19).

وقيل: إنَّ (من) ابتدائيةٌ، وممن اختاره: ابنُ عاشورٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (244/13).

رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ.

أي: رَبَّنا، واستجِبْ لي دُعائي فيما سألتُك فيه.

رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (41).

أي: ربَّنا اغفِرْ لي ولوالِدَيَّ وجميعِ المؤمنينَ يومَ تُحاسِبُ عِبادَك يومَ القيامةِ.(112)

قال ابن عاشور: (و«مِنْ» ابْتِدائيَّةٌ، وليست للتَّبعيضِ؛ لأنَّ إبراهيمَ- عليه السَّلامُ- لا يسألُ اللَّهَ إلَّا أكملَ ما يُحِبُّه لنفسِه ولذرِّيَّته.

ويجوزُ أنْ تكونَ مِن للتَّبعيضِ بناءً على أنَّ اللَّهَ أعْلَمَه بأنْ يكونَ مِنْ ذُرِّيَّته فريقٌ يُقيمونَ الصَّلاةَ، وفريقٌ لا يُقيمونَها، أي لا يؤمنونَ.

وهذا وجهٌ ضعيفٌ؛ لأنَّه يقتضي أنْ يكونَ الدُّعاءُ تحصيلًا لحاصِلٍ، وهو بعيدٌ، وكيفَ وقد قالَ: وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ [إبراهيم: 35] ولم يقُلْ: «ومِن بَنِيَّ»).

((تفسير ابن عاشور)) (244/13).

(112) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (514/4).

قيل: معنَى يَقُومُ الْحِسَابُ: يَثبُتُ.

وممَّن اختار هذا المعنى: الزمخشري، والشوكاني، وابنُ عاشورٍ.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (562/2)، ((تفسير الشوكاني)) (136/3)، ((تفسير ابن عاشور)) (245/13).

وقيل المعنى: يقومُ النَّاسُ للحِساب.

وممَّن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والقرطبي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (703/13)، ((تفسير القرطبي)) (375/9).

قال ابنُ جريرٍ: (قولُه: يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ، يعني: يقومُ النَّاسُ للحسابِ، فاكْتَفى بذِكْرِ الحِسابِ مِن ذِكْرِ النَّاسِ؛ إذ كان مَفهومًا معناهُ).

((تفسير ابن جرير)) (703/13).

سورةُ إبراهيمَ

الآيات (42–46)

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (43) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (44) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (45) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46)

غريب الكلمات:

تَشْخَصُ: أي: تُرفَعُ وتُفتَحُ فلا تَطرِفُ، وأصلُ (شخص): يدُلُّ على ارتفاعٍ في شَيءٍ.

مُهْطِعِينَ: أي: مُسرِعينَ، مُديمِي النَّظَرِ، وأصلُ (هطع): يدُلُّ على إقبالٍ على الشَّيءِ، وانقيادٍ.

مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ: أي: رافِعِيها مع الإقبالِ بأبصارِهم إلى ما بينَ أيديهم، مِن غيرِ التفاتٍ إلى شَيءٍ، وأصلُ (قنع): ارتفاعُ الشَّيءِ ليس فيه تَصَوُّبٌ، وأيضًا يدُلُّ على الإقبالِ على الشَّيءِ.

طَرْفُهُمْ: أي: نَظَرُهم وأبصارُهم، ولا يُثنَّى (الطَّرْفُ) ولا يُجمَعُ؛ لأنَّه في الأصلِ مَصدرٌ، وأصلُ الطَّرفِ: تحريكُ الجفنِ، وعُبِّرَ به عن النَّظرِ؛ إذ كان تحريكُ الجَفنِ لازِمُه النَّظرُ.

هَوَاءٌ: أي: خاليةٌ خاويةٌ فارِغةٌ، وأصلُ (هوي): يدلُّ على خُلُوٍّ وسُقوطٍ.

تفسير الآيات:

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42).

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ.

أي: ولا تظُنَّ- يا محمدُ- اللهَ الذي مِن سُنَّتِه إمهالُ الظَّالِمينَ، وإنظارُهم مُدَّةً قبل أن يُحِلَّ بهم عِقابَه؛ ساهيًا عن أعمالِ هَؤلاءِ الظَّالِمينَ لأنفُسِهم، كمُشرِكي قَومِك وغَيرِهم، بل هو عالِمٌ بأعمالِهم، وسيُعاقِبُهم على ظُلمِهم؛ فإنَّه سُبحانه يُمهِلُ ولا يُهمِلُ.

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: ((إنَّ اللهَ لَيُملي[113] للظَّالِمِ، حتى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه، ثم قرأ: وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [هود: 102])).[114]

---

(113) لَيُملي للظَّالِمِ: أي: يُمهِلُه.
يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (355/8).

(114) رواه البخاري (4686) واللفظ له، ومسلم (2583).

إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ.

أي: إنّما يُمهِلُ اللهُ الظّالِمينَ ويُؤخِّرُ عِقابَهم إلى يومِ القيامةِ الذي ترتفِعُ فيه أبصارُ الخَلقِ، وهم يُحدِّقونَ بها مَبهُوتينَ خائفينَ، دون أن تَطرِفَ أجفانُهم، أو تَغتَمِضَ أعيُنُهم؛ لشدَّةِ ما أصابَهم من الفزَعِ، وما يَرَونه من عظيمِ الأهوالِ.

كما قال تعالى: وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ [الأنبياء: 97].

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (43).

مُهْطِعِينَ.

أي: يمشُونَ مُسرِعينَ عند خُروجِهم مِن قُبورِهم، ومَجيئِهم لمحشَرِهم، وحضورِ حِسابِهم.[115]

كما قال تعالى: مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ [القمر: 8].

---

(115) اختُلِف في معنى: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ في هذه الآية على ثلاثة أقوال: الأول: أنّ الإهطاع: النظر من غير أن يَطْرِف الناظر.

الثاني: أنّه الإسراع.

الثالث: أنّه الذي لا يرفع رأسه.

وبيَّن ابنُ عطية (٥/ ٢٥٨) على القول الثاني –وهو قول سعيد بن جبير، وقتادة– أنّ الإسراع في المشي يكون «بذِلَّةٍ واستكانة، كإسراع الأسير الخائف ونحوه».

ثم رجَّحه قائلًا: «وهذا هو أرجح الأقوال».

ولم يذكر مستندًا، ونقل (٥/ ٢٥٩) عن أبي عبيدة قوله: «وقد يكون الإهطاع للوجهين جميعًا: الإسراع، وإدامة النَّظَر».

وقال عزَّ وجلَّ: يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ [المعارج: 43].

مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ.

أي: رافِعِي رُؤوسِهم ينظُرون إلى ما بينَ أيديهم، دونَ أن يلتَفِتوا يمينًا أو شِمالًا.(116)

لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ.

---

(116) قال القرطبي: (إقناعُ الرأسِ: رفْعُه.

قاله ابنُ عباسٍ ومجاهدٌ...

وقيل: ناكسي رؤوسِهم، والآيةُ محتملةٌ الوجهينِ، وقاله المُبَرِّدُ.

والقولُ الأولُ أعرفُ في اللغةِ).

((تفسير القرطبي)) (9/376، 377).

ويُنظر: ((الكامل)) للمبرد (3/91)، ((معاني القرآن)) للنحاس (3/538، 539)، ((تفسير الماوردي)) (3/140)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: 204)، ((تفسير ابن عاشور)) (13/246).

وممَّن ذهب من المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ بـ مُقْنِعِي: رافعو رؤوسِهم: ابنُ قتيبةَ، وابنُ جريرٍ، والقرطبي، والسعدي.

يُنظر: ((غريب القرآن)) (ص: 233)، ((تفسير ابن جرير)) (13/707)، ((تفسير القرطبي)) (9/376)، ((تفسير السعدي)) (ص: 427).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، والضحاكُ، والحسنُ، وابنُ زيدٍ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وقتادةُ، وأبو عبيدةَ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (13/708)، ((تفسير ابن الجوزي)) (2/517).

وقيل: المرادُ بإقناعِ الرأسِ: طأطأَتُه مِن الذلِّ.

وممَّن قال بذلك: ابنُ عاشورٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (13/246).

قال أبو العباس المُبَرِّد: (المُقْنِع: الرافِعُ رأسَه، في هذا الموضع، ويقال في غيره: الذي يَحُطُّ رأسَه استخذاءً وندمًا؛ قال الله جل وعزَّ: مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ.

ومن قال هو الرافِعُ رأسَه: فتأويلُه عندنا أن يتطاولَ فينظُرَ ثم يطأطئَ رأسَه، فهو بعدُ يرجِعُ إلى الإغضاءِ والانكسارِ).

((الكامل في اللغة والأدب)) (3/91).

أي: لا تعودُ إليهم أبصارُهم على ما اعتادُوه، بحيثُ يتمكَّنونَ من توجيهِ أنظارِهم حيث شاؤوا، أو الطَّرْفِ بأعيُنِهم كما أرادوا؛ وذلك لإدامةِ نَظَرِهم إلى ما يُشاهِدونَه مِن أهوالٍ، فأجفانُهم إليها شاخِصةٌ، وأعيُنُهم نحوَها مُصَوَّبةٌ لا تَطرِفُ لَحظةً.

وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ.

أي: وقلوبُهم خاليةٌ، ليس فيها شيءٌ، ولا تعقِلُ شيئًا من شدَّةِ الخَوفِ.(117)

وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (44).

وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ.

---

(117) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (713/13)، ((تفسير القرطبي)) (377/9)، ((تفسير ابن كثير)) (515/4).

قال ابنُ كثير: (ولهذا قال: وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ أي: وقلوبُهم خاويةٌ خاليةٌ، ليس فيها شيءٌ؛ لكثرة الفزَعِ والوجَلِ والخوفِ؛ ولهذا قال قتادةُ وجماعةٌ: إنَّ أمكِنةَ أفئدتِهم خاليةٌ؛ لأنَّ القلوبَ لدى الحناجرِ، قد خرَجتْ مِن أماكِنِها من شِدَّةِ الخوفِ). ((تفسير ابن كثير)) (515/4).

اختُلِف في معنى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ في هذه الآية على أقوال: الأول: منخرقة لا تعي من الخير شيئًا.

الثاني: لا تستقر في مكان، تتردد في أجوافهم.

الثالث: خرجت مِن أماكنها فصارت في الحناجر.

ورجَّح ابنُ جرير (١٣/ ٧١٣) مستندًا إلى لغة العرب القول الأول، وهو قول ابن عباس، ومُرَّة، ومجاهد، وأبي صالح باذام، وابن زيد، وعلَّل ذلك بأن «العرب تسمي كلَّ أجوفَ خاوٍ هواء».

ثم استشهد في ذلك بأبياتٍ من شعر العرب.

أي: وخَوّفِ النَّاسَ- يا محمَّدُ- ما هو نازِلٌ بهم يومَ يأتيهم العذابُ يومَ القيامةِ، فيَحذَروا مِن الأعمالِ المُوجِبةِ لذلك العذابِ.

فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ.

أي: فيقولُ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ والتَّكذيبِ، وأنواعِ المعاصي، في ذلك اليَومِ: ربَّنا أمهِلْنا، وأرجِعْنا إلى الدُّنيا زمنًا قليلًا، نُؤمِنْ بك ونوَحِّدْك، ونتَّبِعْ رُسُلَك.

كما قال تعالى: وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [الأنعام: 27].

وقال سُبحانَه: وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ [السجدة: 12].

وقال عزَّ وجلَّ: وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ [فاطر: 37].

أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ.

أي: فيقولُ اللهُ للظَّالِمينَ الذين سألوه الرَّجعةَ إلى الدُّنيا، مُوبِّخًا لهم: أولَمْ تكونوا تحلِفونَ في الدُّنيا أنَّه لا انتقالَ لكم مِن الدُّنيا إلى الآخرةِ، ولا بعْثَ بعدَ الموتِ؟

كما قال تعالى: وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ [النحل: 38].

وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (45).

وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ.

أي: وحلَلْتُم في الدُّنيا في مساكنِ الأُمَمِ السَّابقةِ، الذين ظَلَموا أنفُسَهم بكُفرِهم باللهِ تعالى.

وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ.

أي: وعَلِمتُم بالنَّظَرِ في آثارِهم، والسَّماعِ لأخبارِهم كيف أهلَكْناهم، حينَ أصَرُّوا على كُفرِهم وطُغيانِهم.

وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ.

أي: ومَثَّلْنا لكم في القُرآنِ الأمثالَ الواضِحةَ، وبيَّنَّا الأشباهَ؛ لتعتَبِروا بها، لكِنَّكم لم تفعَلوا، فالآن تَسألونَ التَّأخيرَ للتَّوبةِ يومَ أتاكم العذابُ؟! إنَّ هذا غيرُ كائنٍ أبدًا.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا [الإسراء: 89].

وقال سُبحانَه: وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [الزمر: 27].

وقال عزَّ وجلَّ: وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [الحشر: 21].

وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46).

وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ.

أي: وقد مَكَروا[118] مَكرَهم[119] العظيمَ.[120]

---

(118) اختلف المفسِّرون في المرادِ بالذين مكَروا على أقوالٍ؛ منها: أنَّهم الذين ظلموا أنفُسَهم، فيكون المعنى: فعَلْنا بهم ما فعَلْنا، والحالُ أنهم قد مكروا مكرَهم.

وهذا في الجملةِ: ظاهرُ اختيارِ ابنِ جريرٍ، والشوكاني.

وقيل: الضميرُ في مَكَرُوا عائدٌ على المُخاطَبين في قوله: أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ أي: الذين سكنوا في مساكنِ الذين ظلموا أنفسَهم.

وممن اختار هذا المعنى: الرازي، وأبو حيان.

وفي الآية أقوالٌ أخرى.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (2/519)، ((تفسير الشربيني)) (2/189).

(119) قيل: كان مكرُهم شركَهم بالله وافتراءَهم عليه.

وممن اختار هذا المعني: ابنُ جرير، والقرطبي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (13/721)، ((تفسير القرطبي)) (9/380).

وقال السمعاني: (قولُه تعالَى: (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ أي: كادُوا كيدَهم).

((تفسير السمعاني)) (3/124).

وقال ابنُ عاشور: (والمكرُ: تَبْييتُ فعلِ السُّوءِ بالغيرِ وإضمارُه).

((تفسير ابن عاشور)) (13/250).

وهذا القول أيضًا هو ظاهرُ اختيارِ البيضاوي، والشوكاني، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (3/203)، ((تفسير الشوكاني)) (3/140)، ((تفسير السعدي)) (ص: 427).

قال الواحدي: (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ يعني: مكرَهم بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وما همُّوا به مِن قتلِه أو نفيِه).

((الوجيز)) (ص: 586).

وقال الرازي: (وذلك المكرُ هو الذي ذكره الله تعالى في قولِه: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ [الأنفال: 30]).

((تفسير الرازي)) (19/110).

وهذا على اعتبارِ أنَّ الضميرَ في مَكَرُوا عائدٌ على قومِ الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم.

يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (6/454).

(120) قال ابنُ عاشورٍ: (وانتَصبَ مكرُهم الأولُ على أنَّه مفعولٌ مطلقٌ لفعلِ «مكروا» لبيانِ النوعِ، أي: المكر الذي اشتهروا به، فإضافةُ مكرٍ إلى ضميرِ «هم» مِن إضافةِ المصدرِ إلى فاعلِه).

((تفسير ابن عاشور)) (13/250).

وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ.

أي: وعندَ اللهِ عِلمُ مَكرِهم، وجَزاءُ مَكرِهم، فسيُعاقِبُهم بما يستَحِقُّونَ.

وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ.

أي: وما كان مَكرُ الكُفَّارِ بالذي تزولُ منه الجبالُ لضعفِه ووهنِه، ولو كان مكرُهم تزولُ منه الجبالُ فلن يستطيعوا أيضًا إبطالَ دينِ الإسلامِ؛ فإنَّ اللهَ ينصُرُ دينَه.(121)

كما قال تعالى: إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا [النساء: 76].

وقال سُبحانه: يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ [التوبة: 32، 33].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ [الأنفال: 36].

---

(121) قال ابنُ كثيرٍ: (والقولُ الثَّاني في تفسيرِها [أي: على قراءةِ فتحِ اللامِ الأُولَى وضمِّ اللامِ الثانيةِ]: ما رواه عليُّ بنُ أبي طلحةَ، عن ابنِ عبَّاسٍ: وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ الْجِبَالُ يقولُ: شِرْكُهم، كقولِه: تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا [مريم: 90 – 91]، وهكذا قال الضحَّاكُ وقتادةُ).

((تفسير ابن كثير)) (4/517).

ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (3/125)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (1/277).

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قراءةُ لَتَزُولُ بفتحِ اللامِ الأولى ورفعِ الثَّانية؛ فاللامُ الأولى لامُ التَّوكيدِ، والمعنى: قد كاد مَكرُهم العظيمُ يَبلُغُ مِن شِدَّتِه إلى إزالةِ الجِبالِ. وقيل: المعنى: ولو كان مَكرُهم يبلُغُ في الكيدِ إلى إزالةِ الجِبالِ، فلن يُزيلُوا دينَ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ ناصِرٌ دِينَه.(122)

2- قراءةُ لِتَزُولَ بكَسرِ اللامِ الأولى، ونصبِ الثانية، فاللامُ الأولى لامُ الجحود، أي: ما كان مكرُهم لتزولَ منه الجبالُ، والمعنى: ما كان مَكرُهم لِيَزولَ به أمرُ النبيِّ وأمرُ دينِ الإسلامِ؛ لأنَّ ثُبوتَه كثبوتِ الجِبالِ الرَّاسياتِ.(123)

---

(122) قرأ بها الكسائي.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (300/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القرآن)) للزجاج (167/3)، ((معاني القرآن)) للنحاس (542/3)، ((معاني القراءات)) للأزهري (64/2، 65)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (31/5، 32).

(123) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (300/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 203، 204)، ((معاني القراءات)) للأزهري (64/2، 65)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (31/5، 32).

سورةُ إبراهيمَ

الآيات (47-52)

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (48) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (49) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (50) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (51) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ(52)

غريب الكلمات:

مُقَرَّنِينَ: أي: مَشدُودينَ، قد قُرِنَ بعضُهم إلى بعضٍ، أو قُرِنَت أيديهم وأرجلُهم إلى رِقابِهم، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ.

الْأَصْفَادِ: أي: الأغلالِ والقُيودِ، وأصلُ (صفد): يدلُّ على شَدٍّ بشَيءٍ.

سَرَابِيلُهُمْ: أي: قُمُصُهم، واحِدُها: سِربالٌ، وهو القَميصُ مِن أيِّ جِنسٍ كان.

قَطِرَانٍ: القَطِرانُ: مادَّةٌ حارَّةٌ، سَوداءُ اللَّونِ، نَتِنةُ الرَّائِحةِ، شديدةُ الاشتعالِ، تُطلَى بها جُلودُ الإبلِ الجَرِبَى؛ لِيَزولَ الجَرَبُ منها.

وَتَغْشَى: أي: تَلفَحُ وتَعلو وتغطِّي، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ.

تفسير الآيات:

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47).

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ.

أي: فلا تظُنَّ اللهَ– يا مُحمَّدُ– مُخلِفَ رُسُلِه ما وعَدَهم من النُّصرةِ لهم ولأتباعِهم، وإهلاكِ أعدائِهم، وخِذلانِهم في الدُّنيا والآخرة.

كما قال تعالى: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ [غافر: 51].

وقال سُبحانه: لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ [الزمر: 20].

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ.

أي: إنَّ اللهَ قَويٌّ قاهِرٌ لا يُغالَبُ، ولا يمتَنِعُ عليه شيءٌ أراده، مُنتقِمٌ مِن أعدائِه الكافرينَ.

يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (48).

يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ.

أي: إنَّه تعالى ذو انتقامٍ مِن الكافرينَ[124] حينَ تتبدَّلُ صِفاتُ هذه الأرضِ إلى صفاتٍ أُخرَى، ومِن ذلك نَسْفُ جِبالِها، وتفجيرُ بحارِها، وذَهابُ أوديتِها وأشجارِها، وجميعِ ما عليها مِن عِمارةٍ وغَيرِها، فلا يبقَى على وَجهِها شيءٌ، وتُبسَطُ وتُمَدُّ مَدًّا، وتتبدَّلُ صِفاتُ هذه السَّمواتِ كذلك إلى صفاتٍ أُخرَى، ومن ذلك انتِثارُ كواكِبِها، وكسوفُ شَمسِها، وخُسوفُ قَمَرِها، وانشقاقُها وغيرُ ذلك.[125]

---

(124) ممَّن اختار أنَّ يَوْمَ ظرفٌ للانتقامِ المذكورِ قَبلَه: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، والسعدي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (729/13)، ((تفسير ابن عطية)) (347/3)، ((تفسير السعدي)) (ص: 428).
وقيل: المعنى: اذكُرْ يومَ تبَدَّلُ الأرض.
وممَّن اختار هذا: القرطبي.
يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (382/9-383).

(125) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (729/13، 739)، ((البسيط)) للواحدي (513/12)، ((تفسير ابن كثير)) (518/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 428).
وممَّن اختار هذا المعنى المذكور: الزجَّاج، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ تيميةَ، وابنِ كثيرٍ، وابنِ جزي، والقاسمي، والسعدي.
يُنظر: ((معاني القرآن)) (169/3)، ((مجموع الفتاوى)) (110/15)، ((تفسير ابن كثير)) (518/4)، ((تفسير ابن جزي)) (414/1)، ((تفسير القاسمي)) (323/6)، ((تفسير السعدي)) (ص: 428).
وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه.
يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (520/2).
وقيل: المرادُ تبديلُ ذواتِها إلى ذاتٍ أخرى مختلفةٍ.
وممن اختار ذلك: القرطبي.
يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (383/9-384).
وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ، وأنسُ بنُ مالكٍ، وعمرُو بنُ ميمونٍ، وكعبٌ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (729/13).
وقال ابنُ جريرٍ: (أَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ: قولُ مَن قال: معناهُ: يومَ تُبدَّلُ الأرضُ الَّتي نحنُ عليها اليومَ يومَ القيامةِ غيرَها، وكذلك السَّمواتُ اليومَ تُبدَّلُ غيرَها، كما قال جَلَّ ثناؤُه، وجائزٌ أنْ تكونَ المُبدَّلةُ أرضًا أُخرى مِن فِضَّةٍ، وجائزٌ أنْ تكونَ نارًا،

كما قال تعالى: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا [طه: 105–107].

وقال جلَّ جلالُه: يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا [الطور: 9–10].

وقال عزَّ وجلَّ: يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ [المعارج: 8– 9].

وجائزٌ أنْ تكونَ خُبْزًا، وجائزٌ أنْ تكونَ غيرَ ذلك، ولا خبرَ في ذلك عِندنا مِن الوجْهِ الَّذي يجِبُ التَّسليمُ له أيَّ ذلك يكونُ، فلا قولَ في ذلك يَصِحُّ إلَّا ما دَلَّ عليه ظاهِرُ التَّنزيلِ).

((تفسير ابن جرير)) (739/13).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (خرَّجَ مُسلِمٌ عن عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها، قالت: سألْتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن قولِه تعالى: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، فأين يكونُ النَّاسُ يومئذٍ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «على الصِّراطِ».

فالأرضُ تُبدَّلُ كما ثبَتَ في الصَّحيحينِ: «أنَّ النَّاسَ يُحْشَرونَ على أرضٍ بَيضاءَ عَفْراءَ كقُرصةِ النَّقيِّ، ليس فيها عَلَمٌ لأحدٍ ».

قال ابنُ مَسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه: «هي أرضٌ بَيضاءُ كهَيئةِ الفِضَّةِ، لم يُعْمَلْ عليها خَطيئةٌ، ولا سُفِكَ فيها دَمٌ حَرامٌ، ويُجمَعُ النَّاسُ في صَعيدٍ واحِدٍ يَنفُذُهم البَصرُ، ويُسمِعُهم الدَّاعي، حُفاةً عُراةً، غُرْلًا، كما خُلِقوا، فيأخُذُ النَّاسَ مِن كَرْبِ ذلك اليومِ وشِدَّتِه حتَّى يُلجِمَهم العرَقُ».

وبَعضُهم يَرفَعُه إلى النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكذا عن مُجاهِدٍ وغَيرِه مِنَ السَّلفِ...

فهذا الحديثُ وسائرُ الآثارِ تُبيِّنُ أنَّ النَّاسَ يُحشَرونُ على الأرضِ المُبدَّلةِ، والقُرآنُ يُوافِقُ على ذلك؛ كقولِه تعالى: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [إبراهيم: 48] ، وحَشْرُهم وحِسابُهم يكونُ قبلَ الصِّراطِ؛ فإنَّ الصِّراطَ عليه يَنْجُون إلى الجنَّةِ، ويَسقُطُ أهلُ النَّارِ فيها، كما ثبَتَ في الأحاديثِ.

وحديثُ عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها المُتقدِّمُ يدُلُّ على أنَّ التَّبديلَ وَهُمْ على الصِّراطِ، لكنَّ البُخاريَّ لم يُورِدْه، فلعلَّه ترَكَه لهذه العِلَّةِ وغيرِها؛ فإنَّ سنَدَهُ جيِّدٌ.

أو يُقالُ: تُبدَّلُ الأرضُ قبْلَ الصِّراطِ، وعلى الصِّراطِ تُبدَّلُ السَّمواتُ).

((المستدرك على مجموع الفتاوى)) (103/1).

وقيل في الجمعِ بينَ هذه الأخبارِ بأنَّ تبديلَ السمواتِ والأرضِ يقعُ مرَّتينِ: إحداهما تُبدَّلُ صفاتُهما فقط، وذلك عندَ النفخةِ الأُولَى، فتُنثَرُ الكواكبُ، وتخسفُ الشمسُ والقمرُ، وتصيرُ السماءُ كالمُهلِ، وتكشطُ عن الرؤوسِ، وتسيرُ الجبالُ، وتموجُ الأرضُ، وتنشقُّ إلى أن تصيرَ الهيئةُ غيرَ الهيئةِ، ثمَّ بينَ النفختينِ تُطوَى السماءُ والأرضُ، وتُبدلُ السماءُ والأرض.

يُنظر: ((التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة)) للقرطبي (ص: 506)، ((فتح الباري)) لابن حجر (376/11).

وقال سُبحانه وتعالى: فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ [المرسلات: 8-10].

وقال تبارك وتعالى: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ [التكوير: 1-3].

وقال عزَّ مِن قائلٍ: إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ [الانشقاق: 1-4].

وعن سَهلِ بنِ سعدٍ السَّاعديِّ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يُحشَرُ النَّاسُ يومَ القيامةِ على أرضٍ بَيضاءَ عَفراءَ،[126] كقُرصةِ النَّقِيِّ،[127] ليس فيها عَلَمٌ[128] لأحدٍ)).[129]

(126) عفراءَ: أي: لا يَخلُصُ بَياضُها، بل يَضرِبُ إلى الحُمرةِ.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (134/17)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (3510/8).
(127) قُرصَة النَّقِيِّ: أي: رغيف الدَّقيقِ المَنخُولِ النَّظيفِ الأبيضِ.
يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (548/9)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (3510/8).
(128) ليس فيها علَمٌ: أي: ليس فيها علامَةُ سُكنى، ولا بناءٌ ولا أثَرٌ، ولا شيءٌ مِن العلاماتِ التي يُهتدى بها في الطُّرُقاتِ.
يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (375/11).
(129) رواه البخاري (6521)، ومسلم (2790)، واللفظ له.

وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ.

أي: وخرجَ النَّاسُ مِن قُبورِهم أحياءً ظاهِرينَ– لا يُوارِيهم شَيءٌ مِن بِناءٍ أو غيرِه– لِلَّهِ المتفرِّدِ بالمُلْك والخَلقِ والتَّدبيرِ، والعَظَمةِ والكمالِ، الذي قهَرَ كُلَّ خَلْقِه، فهم تحتَ تصرُّفِه وتَدبيرِه وحُكمِه.

كما قال تعالى: يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [غافر: 16].

وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (49).

أي: وترى– يا محمَّدُ– الكافرينَ يومَ القيامةِ مُقَيَّدين بالأغلالِ والقُيودِ.

كما قال تعالى: وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا [الفرقان: 13].

وقال سُبحانه: الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ [غافر: 70 – 72].

سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (50).

سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ.

أي: ثيابُهم التي يَلبَسونَها مِن القَطِرانِ.[130]

عن أبي مالكٍ الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((النَّائِحةُ إذا لم تتُبْ قبل مَوتِها تُقامُ يومَ القيامةِ وعليها سِربالٌ مِن قَطِرانٍ، ودِرعٌ مِن جَرَبٍ))[131].[132]

وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ.

أي: وتلفَحُ وُجوهَ المُجرِمينَ النَّارُ، فتُحيطُ بها مِن كُلِّ جانبٍ، وتَحرِقُها.[133]

---

(130) قال الزمخشري: (تُطلى به جلودُ أهلِ النَّارِ، حتى يعود طلاؤُه لهم كالسَّرابيل وهي القُمُص، لتجتمِعَ عليهم الأربعُ: لذعُ القَطِرانِ وحُرقتُه، وإسراعُ النَّارِ في جلودهم، واللَّونُ الوَحش، ونَتْنُ الرِّيحِ.
على أنَّ التفاوتَ بين القطرانينِ كالتَّفاوتِ بين النَّارين).
((تفسير الزمخشري)) (2/567).
قال ابنُ عاشورٍ: (وجُعِلَتْ سَرابيلُهم مِن قَطِرانٍ؛ لأنَّه شَديدُ الحرارةِ، فيُؤلِمُ الجِلْدَ الواقِعَ هو عليه، فهو لِباسُهم قبْلَ دُخولِ النَّارِ ابتداءً بالعذابِ حتَّى يَقعوا في النَّارِ).
((تفسير ابن عاشور)) (13/253).
(131) دِرعٌ مِن جَرَبٍ: الدِّرعُ من المرأةِ قَميصُها، والجربُ داءٌ يُصيبُ الجلدَ بالحَكَّةِ.
والمراد: أنَّه يُسلَّط على أعضاءِ النائحةِ الجربُ والحَكَّةُ، بحيثُ يُغطِّي جِلدَها تغطيةَ الدِّرعِ.
يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (4/157)، ((شرح المشكاة للطيبي)) (4/1419)، ((تاج العروس)) للزبيدي (20/538).
(132) رواه مسلم (934).
(133) قال السعدي: (وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ التي هي أشرَفُ ما في أبدانِهم النَّارُ أي: تحيطُ بها وتَصْلاها من كلِّ جانبٍ، وغيرُ الوجوهِ مِن بابِ أولَى وأحرَى).
((تفسير السعدي)) (ص: 428).

كما قال تعالى: لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ [الأنبياء: 39-40].

وقال سُبحانه: تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ [المؤمنون: 104].

لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (51).

لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ.

أي: يفعَلُ اللهُ بالمُجرِمينَ ما يفعَلُ؛ ليكونَ في ذلك جزاءٌ للمُسيءِ على إساءتِه، لا ظُلمًا منه سُبحانه، وكما يعاقِبُ من أساء يُثيبُ من أحسَنَ وأطاع.

كما قال تعالى: وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ [يونس: 4].

وقال سُبحانه: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى [النجم: 31].

إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ.

أي: إنَّ اللهَ سَريعُ المُحاسَبةِ لعبادِه يومَ القيامةِ، لا يخفَى عليه شيءٌ مِن أعمالِهم.

هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (52).

﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾.

أي: هذا القُرآنُ تَبليغٌ مِن اللهِ تعالى إلى جميعِ النَّاسِ؛ لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، والإعذارِ إليهم،[134] وهو كفايةٌ لهم في الموعظةِ والتذكيرِ،[135] وبه يتبلَّغونَ، ويتزوَّدونَ للوُصولِ إلى أعلى المَقاماتِ والدَّرَجاتِ.[136]

---

(134) وممن اختار أنَّ قولَه: بَلَاغٌ بمعنى التبليغِ: الواحدي، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (524/12)، ((تفسير السمعاني)) (127/3)، ((تفسير البغوي)) (49/3)، ((تفسير القرطبي)) (385/9)، ((تفسير الخازن)) (46/3)، ((تفسير ابن عاشور)) (254/13).

وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ جرير، وابنِ كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (746/13)، ((تفسير ابن كثير)) (523/4).

قال ابنُ جريرٍ: (يقولُ تعالى ذكرُه: هذا القرآنُ بلاغٌ للناسِ، أبلَغ اللهُ به إليهم في الحجةِ عليهم، وأعذرَ إليهم بما أنزَل فيه مِن مواعظِه وعبرِه).

((تفسير ابن جرير)) (746/13).

(135) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (574/3)، ((تفسير البيضاوي)) (204/3).

وممن اختار أنَّ قولَه: بَلَاغٌ بمعنَى الكفايةِ: الزمخشري، والرسعني، وابنُ الجوزي، والرازي، والبيضاوي، وأبو حيان، والعليمي، والقاسمي.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (568/2)، ((تفسير الرسعني)) (574/3)، ((تفسير ابن الجوزي)) (521/2)، ((تفسير الرازي)) (114/19)، ((تفسير البيضاوي)) (204/3)، ((تفسير أبي حيان)) (459/6)، ((تفسير العليمي)) (537/3)، ((تفسير القاسمي)) (326/6).

وممن جمَع في تفسيرِ قولِه: بَلَاغٌ بينَ معنى الكفايةِ ومعنَى التبليغِ: الشوكاني، فقال: (بَلَاغٌ، أي: تبليغٌ وكفايةٌ في الموعظةِ والتَّذكيرِ).

((تفسير الشوكاني)) (143/3).

(136) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 428).

قال السعدي: (هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ أي: يتبلَّغونَ به ويتزوَّدونَ إلى الوصولِ إلى أعلَى المقاماتِ، وأفضلِ الكراماتِ، لما اشتمل عليه مِن الأصولِ والفروعِ، وجميعِ العلومِ التي يحتاجُها العبادُ).

((تفسير السعدي)) (ص: 428).

وقال الشنقيطي: (والبلاغُ: الكفايةُ، وما تُبْلَغُ به البُغيةُ.

كما قال تعالى: وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ [الأنعام: 19].

وقال سُبحانه: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ [يونس: 57].

وَلِيُنْذَرُوا بِهِ.

أي: وأنزلْنا القُرآنَ ليُخَوَّفَ النَّاسُ به عِقابَ اللهِ، ويُحَذَّروا من نقمتِه.

كما قال تعالى: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا [الأنعام: 92].

وقال سُبحانه: فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ [ق: 45].

وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ.

أي: وليعلمَ النَّاسُ بحُجَجِ القرآنِ وبَراهينِه أنَّ اللهَ المعبودَ بحَقٍّ إلهٌ واحِدٌ، لا يستحِقُّ غيرُه العبادةَ.

وما ذَكَره هنا مِن أنَّ هذا القرآنَ فيه الكفايةُ للعابدِينَ، وما يبلغونَ به بُغيتَهم، أي: مِن خيرِ الدُّنيا والآخرةِ ذَكَره في غيرِ هذا الموضعِ، كقولِه: هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ).

((أضواء البيان)) (250/4).

وقال ابنُ أبي زمنين: (يُبَلِّغُهم إلى الجنَّةِ).

((تفسير ابن أبي زمنين)) (378/2).

كما قال تعالى: كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ [هود: 1-2].

وقال سُبحانه: قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [الأنبياء: 108].

وقال عزَّ وجلَّ: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ [فصلت: 6].

وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ.

أي: وليتذكَّرَ ويتَّعِظَ أصحابُ العُقولِ السَّليمةِ بهذا القرآنِ، فيَهتَدوا إلى العمَلِ بما ينفعُهم، وتَرْكِ ما يضُرُّهم.

كما قال تعالى: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ [ص: 29].

وقال سُبحانه: قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ [فصلت: 44].

تمَّ بحمدِ الله تعالى المجلَّدُ الثاني عشَر ويليه المجلدُ الثالثَ عشَر

وأوَّله: تفسيرُ سورةِ الحِجرِ

الفهرس

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

نسخة إلكترونية

المغني في التفسير

المُحرّرُ الجامِعُ لِتفاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا